بين علم آدم
والعلم الحديث

تأليف

الأستاذ / محمد شهاب الدين الندوي

السنة السادسة - العدد ٦١
ربيع الثاني ١٤٠٧هـ - ديسمبر ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد السماوى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذى يرشد ارشاداً شاملاً إلى الوجهة الصالحة فى جميع قضايانا الفكرية والحضارية والعمرانية ويحل سائر المعضلات العويصة من المشاكل الاجتماعية والدولية ، ويذلّل العقبات التى نجدها فى طريقنا إلى الله تعالى ، وينوّر عقولنا ويفتح نوافذ قلوبنا المغلقة . وهو كتاب الله الخالد الذى يبحث فى قضايا الانسان الحيوية الأبدية . فهو جديد لا يبلى جدته ، ولا يزول رواؤه وبهاؤه أبداً . فرسالته دائمة الأثر وخالدة التوجيه ، وحقائقه أبدية لا تقبل أى نسخ أو تبديل . وإنه لسوط فى مجال الفكر والتصور ويتحدّى البشر أن يعرضوا مثل هذا الكلام علواً وكمالاً . وهو المثل الأعلى من كل وجه وناحية . وهو نموذج رائع من روائع الصنع الربانى الذى لا مثيل له فى الصنع البشرى .

إنَّ هذا الكتاب الفريد الفذّ لا يشبه كلام الانسان بأسلوبه المعجز ولا يضاهى كلاماً من صنع بشر ، فبينهما بون بعيد ومسافة شاسعة ، لا يلتقيان فى أية نقطة . وهو الكتاب البديع المتفرد المليىء بالمعانى الحقة والحقائق الأبدية التى يصدّقها الزمان والعلوم العصرية يوماً فيوماً .

وإن هذا الكتاب يمثل فى تحقيق هذه المميزات والدعاوى فى قصة آدم وتعليم ربه له أسماء كل شىء . كما هو يمثل فى فلسفة هذه القصة النهضة الاسلامية ونهضة المسلمين فى العصر الراهن . وبالله التوفيق .

صفحة جديدة لأسرار القرآن الكريم

قضية اليوم :

إن القرآن الكريم هو منبع أساسى لجميع أفكارنا الدينية والشرعية والاجتماعية والحضارية . إنه يرشد البشرية فى سائر القضايا الحيوية والعمرانية ارشاداً تاماً ولا يتركها فى ظلام وضلال تخبط خبط عشواء . فمن هذه الوجهة إذا نظرنا فى هذا الكتاب الخالد وتدبرنا فى آياته الأبدية تبيَّنت لنا الأمور واهتدينا إلى حل القضايا العويصة المعقدة التى يتحيّر فيها المسلمون فى هذا العصر فكرة واعتقاداً أمام تحدّيات العصر الراهن .

ومن أكبر قضايا اليوم قضية التوافق بين العلم والدين أو مسألة ارتباط العلوم الحديثة والتكنولوجيا بالدين الاسلامى الحنيف . فحزب متطرّف من المسلمين يرى أن الاسلام غير متكامل لا يرشد الانسان فى القضايا الجديدة ، وهو يؤمن بتأثير الحضارة الجديدة والعلوم الحديثة وحدها ، رافضاً جميع أمور الديانة . وحزب منهم متديّن ومتصلب ينكر بالعكس أى تأثير للعلوم والحضارة الجديدة ، ولا يرى أية صلة وقرابة بينها وبين الدين ، سوى الإيمان بالله وحده ، فلا يلتفت إلى الظروف والأوضاع أى التفات . وهناك حزب بينهما متحير، لايعلم بأيهما يصدّق وبأيهما يلتحق. وهكذا شتى

طبقات هذه الأمة حائرون اليوم بين الدين والدنيا وبين الحضارة والعلوم ، فأهملو مصالح الدين والدنيا وغضوا البصر عن سائر الشؤون والأحوال التاريخية والسياسية والاجتماعية والحضارية .

إنَّ الفصل بين الدين والدنيا والتفريق بين العلم والديانة قد ضر كثيراً فى القديم والحديث ، حتى انهزمت الأديان التى قامت باهمال الدنيا ومقتضياتها وفشلت شر فشلٍ فى ساحة الحياة كالمسيحية القديمة والهندوكية والبوذية ونحوها . إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يبيّن الصلة الصحيحة بين العلم والدين ويوضّح المبادىء والتصورات الأساسية بين الديانة والحضارة ، ويرشد الناس فى مجال الفكرة والتصور ارشاداً صحيحاً لا خفاء فيه ولا غموض .

ومن هذه الوجهة يجب علينا أن نرجع إلى ينابيع القرآن ونقتبس منه ما ينوّر عقولنا و أفكارنا وأن نتأمل فيما خفى علينا من أمور الدين والدنيا ، لنقود العالم قيادة صحيحة فنؤدى ما يجب علينا من الواجب الدينى والمسئولية ، لتحصل لنا سعادة الدين والدنيا معاً .

العلم الأول الذى أعطى الانسان :

وعلى كل ، فإن العلم الحديث هو الموضوع الأساسى الذى يجادل فيه المجادلون . ونحن الآن فى صدده للبحث والدراسة وتبيين الحقيقة من حيث احتياجه وعدمه ، أى هل هو من الضروريات التى لا بدمنها أم لا ؟ ـ فكما سبق أن بيناه ـ فريق يراه ضرورياً بينما فريق آخر يرفضه ويهينه ولا يرى له أىَّ تأثير فى الحياة الانسانية والاجتماعية . وهذه نظرية خاطئة كما يظهر بالتصور القرآنى الكريم .

فإن كتاب الله تعالى يبين لنا بكل وضوح أنَّ العلم الذى أعطى الانسان لأول مرة فى الدنيا لم يكن علم الدين أو علم الشريعة ، بل كان علم الأشياء والموجودات . وهو الذى يسمّى فى العصر الراهن بالعلم الجديد أو « SCIENCE » . وبهذا العلم فضّل آدم عليه السلام على الملائكة وسائر الخلق . فقد قال الله تبارك وتعالى فى قصة آدم :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنّى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلّها﴾[1] .

وما هذه الأسماء الا عناوين الأشياء وتعريفاتها وخصائصها ومنافعها ومضارها التى لها أهمية بالغة فى مجال الخلافة فى الأرض . ولا تقوم الخلافة أى سيادة العالم والسُلطة على الكينونات إلا بهذا العلم الأساسى . ولذلك علّم الله تعالى الانسان الأول هذا العلم الهام بعد مشروع استخلاف الانسان على الفور كما تظهر هذه التصورات بأول وهلة من النظر . وفى تأييد هذه النظرية ومناصرتها نحن نقدم بعض بيانات كبار المفسرين والعلماء .

ما هى الأسماء :

الاسم لغة ما تعرف به الأشياء . أى ما يعرف به ذوات

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ ـ ٣١ .

الأشياء . فقد صرح أهل اللغة أن اسم الشيء علامته .[1]

قال أبو العباس : الاسم رسم وسِمة تُوضَع على الشيء تُعرف به . قال ابن سيده : والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض .[2]

وقال الراغب الأصفهاني : (وعلم آدم الأسماء كلها) أي الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها . لأنّ معرفة الأسماء لا تحصل إلّا بمعرفة المسمّى .[3]

وقد ذكر صاحب لسان العرب ابن منظور الافريقي المصري : قيل معناه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات .[4]

وقال ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال علّم الله آدم الأسماء كلّها ، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس . إنسان ودابّة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم .[5]

هذا ، ويوجد هناك بعض الاختلاف في تفسير هذه الأسماء ،

---

(١) القاموس المحيط . للفيروز آبادى ٣/٣٤٤ . دار الفكر بيروت . ١٣٩٨هـ ولسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري . ١٤/٤٠١ . دار صدر بيروت . وانظر أيضا المفردات في غريب القرآن للأصفهاني . ص ٢٤٤ . بيروت .

(٢) لسان العرب . لابن منظور . ١٤/٤٠١ .

(٣) المفردات في غريب القرآن . ص ٢٤٤ .

(٤) لسان العرب . ١٤/٤٠٢ .

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن . للطبري . ١/١٧٠ .

كما ذكره ابن الجوزى فى تفسيره حيث يقول : وفى الأسماء التى علّمه قولان : أحدهما أنه علمه كل الأسماء ، وهذه قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . والثانى أنه علّمه أسماء معدودة لمسميات مخصوصة .[1]

ولكن الحق فيه هو القول الأول الذى قاله ابن عباس وأصحابه أنه تعالى علم آدم الأشياء كلّها . ويؤيد ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه : أن الناس فى يوم القيامة يتوجّهون إلى آدم عليه السلام من تعب وشدّة ، ثم يقولون له : «أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شىء ...[2]

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث : «فدل هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات»[3]

ونظراً إلى هذا الأساس المتين فإن معظم المفسّرين ذهبوا إلى هذا المعنى وأخذوا بشتى أطرافه فى البحث والتوجيه . فالعلامة الآلوسى يرى أنها الأسماء التى تقتضى منصب الخلافة ، فيقول :

«والحق عندى ما عليه أهل الله تعالى . وهو الذى يقتضيه منصب الخلافة . وهو أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية ، جوهرية أو عرضية» .[4]

ويقول الزمخشرى فى شرح هذه الآية بأن المراد هنا بالأسماء أسماء

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير . لابن الجوزى . ٦٢/١ ـ ٦٣ . دمشق . ١٣٨٤هـ .
(٢) الصحيح للبخارى . كتاب التفسير . ١٤٧/٥ . طبعة استانبول . ١٩٧٩م .
(٣) تفسير القرآن العظيم . لابن كثير . ٧٣/١ .
(٤) روح المعانى . لشهاب الدين الآلوسى . ٢٢٤/١ . بيروت .

المسميات وهى الأجناس المختلفة التى خلقها الله تعالى ، وعلّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية .[1]

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى هذا الصدد شرحاً لهذا المعنى : «وقد ميّز كل مسمّى باسم يدل على ما يفصله من الجنس المشترك ، ويخصّه دون ما سواه . ويبين به ما يرسم معناه فى النفس . ومعرفة حدود الأسماء واجبة ، لأنه بها تقوم مصلحة بنى آدم فى النطق الذى جعله الله رحمة لهم لا سيما حدود ما أنزل الله فى كتبه من الأسماء كالخمر والربا .[2]

ويقول العلامة أبوبكر أحمد الجصاص الرازى : يدل على أنه علّم الأسماء كلّها لآدم ، أعنى الأجناس بمعانيها لعموم اللفظ فى ذكر الأسماء . وأنه علّمه أياها بمعانيها ، إذ لا فضيلة فى معرفة الأسماء دون المعانى . وهى دلالة على شرف العلم وفضيلته .[3]

فعلى هذه الوجهة ذهب كثير من المفسرين مثل الفخر الرازى[4] والشيخ رشيد رضا[5] إلى أنَّ المراد بتعليم الأسماء هى صفات الأشياء وخواصها وميزاتها ، وغيرها . وزاد بعض المفسرين مثل البيضاوى[6] والجوهرى[7] ـ على ذلك أنه يدخل فيه

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل . لجار الله الزمخشرى . ٢٧٢/١ .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . ٥٨/٩ ـ ٥٩ . الرياض .
(٣) أحكام القرآن للجصاص . ٣١/١ . بيروت ١٣٢٥هـ .
(٤) انظر مفاتيح الغيب للرازى . ٢٥٨/١ .
(٥) أنظر تفسير المنار . ٢٦٢/١ . دار المعرفة بيروت .
(٦) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل لبيضاوى .
(٧) انظر الجواهر فى تفسير القرآن الكريم . ٢/١ . مصر .

أصول العلم وقوانين الصناعات واختراع الآلات وغير ذلك ، كما سيأتى تفصيلها .

وبالجملة قد أحاط لفظ الأسماء ـ بهذه التصريحات ـ جميع موجودات الكون وسائر ظواهر العالم من أعراضها وخصائصها وآثارها . وهذا علم واسع المدى . وبه يتم مصالح الدين والدنيا . ولخطورته سعد الانسان باعطاء هذا العلم فى أول يومه .

بعض حقائق مدهشة :

إن هذه الآيات المبحوث فيها هى تزوّدنا فى طياتها دروساً وبصائر لا تحصى . ولكن نكتفى باستعراض بعض الحقائق التى تتعلق بخلافة الأرض فقط لخطورته البالغة .

تحسين الأرض مضافًا للإنسان :

﴿**الأسماء كلّها**﴾ هذا المفهوم يدل على أن جميع أشياء الكون وأنواع الحياة وأصنافها قد خلقت بكمالها قبل خلق آدم عليه السلام . وبالتالى فإن الكرة الأرضية كانت متزيّنة ومشحونة بجميع أمتعة الحياة وحوائجها ، خالية عن كل نقص أو عيب ، لتكون مضافًا للإنسان ، وينسجم مع الفطرة الانسانية وحاجاته انسجاماً كاملاً من كل وجهة . هذا هو المفهوم بقوله تعالى : ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾[١]

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤ .

علم الأسماء والعلم الحديث :

إن أول علم رزق الانسان هو علم الأشياء . يعنى علم جميع موجودات الكون بخصائصها ومميّزاتها . ونكاد نعبّر عنه بـ «علم الأسماء» حسب مصطلح القرآن الكريم . وعلى كل ، هذا هو العلم الحديث الذى يعبّر فى العصر الراهن بـ (SCIENCE) . فإن العلم الحديث يبحث عن نفس هذه الأشياء وخواصها وظواهرها وفاعلياتها التى عبّر القرآن عن جميع هذه بلفظ معجز وهو (الأسماء) . فإن علم الطبيعة (PHYSICS) ، .وعلم الكيمياء (CHEMISTRY وعلم الأحياء (BIOLOGY) وعلم الجولوجيا (GEOLOGY) وعلم الأفلاكASTRONOMY وغير ذلك من العلوم الكونية إنما تدور حول الأشياء المادية (أى حول المسمّيات) وخواصها ونعوتها ومميّزاتها (أى حول الأسماء فحسب . وبالتالى فإن من المستحيل فهم (الأسماء) حق الفهم بدون معرفة هذه العلوم الحديثة . لأن العلم الحديث عبارة عن البحث والدراسة عن الأشياء الموجودة ، والمظاهر الكونية بتراكيبها وماهياتها وكيانها .

علم الأسماء وخلافة الأرض :

إن علم الأسماء والخلافة يرتبطان برباط وثيق ، ولذلك قد سبقا معاً . إنَّ الخلافة أو النيابة فى الأرض لا تقوم الا بالنبوغ فى العلوم الكونية والصنائع الاجتماعية والمدنية . والتخلّف فى هذه الساحة إنما يدعو إلى البؤس والشقاء من الوجهة السياسية والاجتماعية كما هى الظروف الراهنة شاهدة على هذا . فإن الأمم الراقية التى تملك هذه

القوات المادية تقهر الأمم المتخلّفة . وتهدّدهم حيناً فحيناً . فإن هذا العلم ضرورى من هذه الوجهة ولا يُستهان بها .

وإذا تأملنا فى حكمة هذا العلم وفلسفته واستعرضنا جوانبها تبيّن لنا هذه الحقيقة الأساسية أن الانسان إذا لم يكن عارفاً بتراكيب الأشياء وماهيتها ووظائفها النوعية لا يسع له الاستفادة بالكمال ، ولا يقدر على استخدام القوى المودّعة فيها من غير تسخيرها والتغلب عليها فإذا لم يقهر هذه الموجودات ولم يخضع طاقاتها ، فلا معنى له أن يكون خليفة فى الأرض ، وتفوقه آنئذ الأهداف الربّانية التى خلق من أجلها . ولذا آثر الله الانسان على الملائكة للاستخلاف فى الأرض كما صرح المفسرون بذلك . يقول الشيخ محمد شفيع ـ المفتى الأكبر لباكستان ـ فى تفسير هذه الآية :

«لابد لاستحقاق الخلافة فى الأرض من معرفة المخلوقات الأرضية وخصائصها وآثارها ، وما كانت طبيعة الملائكة حاملة لذلك» .[1]

وكتب الأستاذ الجوهرى فى هذا الصدد : «فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها» .[2]

أهمية العلوم الكونية :

إن الله تبارك وتعالى هو الذى علم آدم جميع أسماء الكون ونعوتها وصفاتها . فهو المعلّم الأوّل من هذه الوجهة كما ينصّ القرآن

---

(١) تفسير معارف القرآن . ١٧٨/١ .

(٢) الجواهر من تفسير القرآن الكريم . ١:٥٢ .

الكريم : ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلّها**﴾ وهكذا رزق البشر بعلم الأشياء بوساطة أبى البشر آدم . فانسان اليوم يصدّق هذا التعليم الربانى بتعلّم هذه الأشياء وصفاتها . وكما قال الشيخ رشيد رضا لتصديق هذا التعليم يكفى ثبوت هذه القوة للبشر (مجرد) معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال .[1]

وأما الفرق بين آدم وأولاده فهو أن علم آدم كان موهوباً من الله تعالى . أى كان هو العلم الذى أعطاه الله من غير كسب ومشقّة . بينما العلم الذى أعطى أبناء آدم هو مكسوب وحافل بالتعب والعناء ، أى العلم الذى لا يحصل إلّا بالكد والجهد . ولكن الله فطر الناس مجبولين باستعداد كسب هذا العلم من أول اليوم لكى يسخّروا أشياء الكون ويؤدّوا مسؤولياتهم تجاه خلافة الأرض .

اتّضح فيما أسلفنا فضيلة العلم وشرفه ، إلّا أن هناك تثبت أهمية علم التكوين أى علم المظاهر ومعرفة الأشياء بالأخص . وقد اتضح بذلك أيضاً أن هذا العلم ليس محظوراً فى منظور الشرع ، ولا العلم (الغير اسلامى) ولا أمر بلا جدوى ، بل إنما هو من التعليم الربانى والهدف الأول من أهداف الخلافة فى الأرض . فلو لم يكن هذا العلم ضرورياً لم يعلّمه الله تعالى قط . وبالتالى فإن الجهل من هذا العلم وغض البصر عن مقتضياته إنما يؤدّى إلى الخسارتين الدينية والدنيوية ، كما سنرى فى البحوث الآتية . ولخطورة الأمر قد أوتى الانسان علم جميع الموجودات على الفور بعد ما خلق ، فلا بد له

---

(١) انظر تفسير المنار . ٢٦٣/١ . دار المعرفة . بيروت .

من الخلافة فى الأرض . فإن العلم الذى علّمه ربّ السماوات والأرض بنفسه لن يكون مهيناً ووضيعاً كما يزدريه أهلُ الملل والأديان .

علم الأسماء والصناعات :

صرّحنا فيما اسلفنا بأن بعض المفسرين ذكروا أن الصناعات المختلفة واختراع آلاتها أيضاً داخلة فى تعليم الأسماء ، كما يقول بذلك البيضاوى فى تفسيره :

«ألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصّها وأسماءها وأصول العلم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها) .[1]

وقال الجوهرى : (والهمه المعرفة والاختراع وسائر الصناعات) .[2]

وطبقاً لهذه التصريحات فإنَّ مصطلح «علم الأسماء» شامل واسع المدى ، يشمل جميع العلوم والفنون المادية . ونستطيع أن نعبّر عنه فى المصطلح المعاصر بالعلم والتكنولوجيا (SCIENCE AND TECHNOLOGY) . لأَن مفهوم العلم والتكنولوجيا هو معرفة المادة (MATTER) واستخدام طاقاتها (ENERGIES) ، مثل اعداد أنواع من المنتوجات والمركبات الكماوية وشتى لوازم المدنية وملتزماتها ، والانتفاع بالحرارة والكهرباء بعد تذليلها فى شتى مجالات الحياة البشرية . فكل ما

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى . ٦١/١ . ديوبند .

(٢) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للطنطاوى الجوهرى . ٥٢/١ .

يوجد اليوم من الصناعات (INDUSTRIES) وكل ما ينتفع به الانسان من المنافع الاقتصادية والمدنية ، إنما هى ثمرات هذه العلوم الكونية وتقدمها . فمن هذه الوجهة تبيّن لنا بكل وضوح أن العلم والتكنولوجيا لا زمان للخلافة فى الأرض ، فهما توأمان لا نفرق بينهما أبداً .

علم الأسماء يقضى على عبودية المظاهر :

يَهذِى المُتحَذلقون بأن تصوّر الاله والدين إنما نشأ فى البداية بالبيئة المدهشة العجيبة المحاطة بالانسان . فلما وجدت هذه المظاهر الرهيبة بأطرافه خضع أمامها يعبدها وقاية من شرها . هكذا بدأ الدين ونشأ تصور الاله والأخلاق وغير ذلك من تصورات الديانة . وهذا ما يقوله الفيلسوف هربرت سبنسر (SPENCER) وغيره من الفلاسفة .

ولكن قصة تشريف آدم بعلم الأسماء تبطل هذه الشبهة الواهية والتصور الخاطىء المختلق ، وتثبت بأن الانسان الأول لم يظهر فى بيئة الجهل والخوف المظلمة المدهشة ، بل وإنما طلع على سطح الأرض بنور ساطع من العلم والعرفان الربانيّين ، ممسكا مشعل علم الأسماء فى احدى يديه ، وعنان تسخير الأشياء والموجودات فى الأخرى ، ليقطع بهما مجال الخلافة بالسير الحثيث .

فكانت الحكمة الربانية بتشريف هذا العلم فى بداية الأمر أن يتعرف الانسان على جميع الأشياء ولا يكون منها خائفاً مذعورًا ، فيغلق بهذه الخطوة الأساسية باب الشرك والخضوع أمام المظاهر

الكونية ، وأعلن بكل صراحة أن هذه الأشياء والكينونات ليست آلهةً للإنسان ، بل إنما هى خادمة له . والإنسان هو أرفع مرتبة من هذه الموجودات المخلوقة التى ليست فيها شائبة من الألوهية . فلا ينبغى للإنسان أن يعبد ما كان دونه مرتبة ومنزلة . فقد قال الله عزّ وجل :

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[1]

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

الردّ على نظرية النشوء والارتقاء

قد تبين فيما ذكرنا سالفاً أن خلق الإنسان ونشأته كانت فى بيئة خاصة ومناخ مخصوص ورقابة متميّزة . وهذا كله يبطل نظرية النشوء والارتقاء أيضاً . ولكن لا يتسع لنا هذا المقام للبحث المبسوط على هذا الموضوع والأخذ بجوانبه ، وإنما هى نظرة عابرة فى سياق هذه المعانى والحقائق الثابتة من ناحية البيان القرآنى الكريم ، ليتم هذا البحث من كل وجهة .

فمن ناحية هذه النظرية قد مضت آلاف من السنين بعد ظهور النوع الانسانى بشتى تحولات وتطورات من نوع إلى نوع ، ومن طور إلى آخر ، حتى اتصف بالنطق والتكلم إلى أن استطاع القراءة والكتابة بعد فترة طويلة وزمن بعيد فى العصر الراقى .

وبالتالى فإن بعض الناس يتصورون بأن الانسان كان يعبّر عما فى خاطره بالاشارة والإيماء فى بداية أمره . ولكن التصور الاسلامى الأصيل يأبى هذا التصور الخاطىء ويستأصل جذوره . فإن اتصاف أبى البشر آدم عليه السلام بالنطق والكلام وتشريفه بالعلم والبيان ، وتعليمه جميع الأشياء وصفاتها عقب خلقه ونشأته ، ينفى هذه النظرية بأن الانسان الأول ظهر طارئاً و مصادفاً بغير تقدير الهى نفياً بيّناً ، ومما يبطل هذا التفكير المختلق ، ، البيان الثابت من النص

القرآنى أن الانسان منح النطق والتكلم فى الوقت الذى خلق فيه . فكلاهما حصل معاً من غير فصل أو فترة من الزمن .

﴿**خلق الانسان علّمه البيان**﴾[1] .

فقد تجلّت هذه الحقيقة الأبدية بغير ذكر حرف العطف بين الفترتين . فتبيّن أن خلق الانسان وتعليم البيان ـ أى قبل تعليم الأسماء ـ وقعاً مباشرة فى لحظة واحدة بغير انقطاع .

ثم إنَّ خلق الانسان كما أنه مبعث حيرة واستعجاب من الوجهة العلمية ، فكذلك قدرته على البيان والتكلم يحدث دهشة واستغرابًا . لأن هاتين القضيتين من الأسرار الالهية التى لم يفز الانسان ولا العلم الجديد باكتشاف كنهها . وحقيقة الأمر أن البيان والتكلم موهبة ربانية ، ولا يحصل بالسعى والجهد ، وإلّا لكان المنطق المعقول أن تنتهى إلى هذه الدرجة أنواع أخرى ـ فبالعكس نرى جميع المحاولات لتعليم الغول (GORILLA) وشمبنزى (CHIMPANZEE) التكلُّم ذهبت سدى فى العصر الراهن ، وهما أقرب الأنواع للإنسان ، كما يقول الماديون .

ثم ان التصور القرآنى ـ حيث يجعل الانسان خليفة ـ ينافى هذه النظرية الباطلة التى لم ينزل بها سلطان . فإن الشىء الذى يولد وينشأ تلقائياً بغير خطة سابقة ، لا يكلف شرعياً وعقلياً . لأنه من هذا المنظور لا يكون من صنع خالق ومبدع ، ولا يقرر من صنعة

---

(١) روى عن ابن عباس وقتادة أنه آدم عليه السلام . كما رواه ابن جرير فى تفسيره . ونقله ابن الجوزى فى تفسيره . زاد المسير فى علم التفسير . ١٠٦/٨ .

تعميم وتقدير . مع أن القرآن الكريم مملوء من التعميمات والمشروعات الالهية تجاه خلق وابداع جميع الموجودات الكونية ومقاديرها ، كما يقول الله تبارك وتعالى :

﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ .[1]

صدر حديثاً كتاب علمى هام من اكسفورد «معجم الحقائق المجهولة» THE ENCYCLOPAEDIA OF IGNORANCE شارك فيه ستون من العلماء الأخصائيين فى شتى مجالات العلم ، واستعرضوا علومهم ومواضيعهم بفحص وتدقيق ، وأضاءوا هذه القضية الأساسية بحسن وكمال بأن معلومات الانسان قليلة جداً بنسبة مجهولاته ، وأن هناك من المعارف والأسرار الطبيعية والاحيائية التى لا تنتهى ولم يتوصل إليها البشر حتى الآن .

وفى هذا الكتاب القيم بحوث فى إبطال نظرية النشوء والارتقاء أيضاً . منها بحث مُهم عنوانه «سفسفات نظرية الارتقاء» (FALLACIES OF EVOLUTION THEORY ، وخلاصته أن الانسان لا يعلم شيئاً من القوانين الارتقائية المزعومة ، وتسميتها بالحقائق أغلوطة وسفسطة . ويقول صاحب المقال (E.W.F. TOMLIN) فى نهاية القول : «إن أشدّ التعقيد فى التفكير الارتقائى المعاصر ـ وهو الذى يبعث كثيراً من الأغلوطات ـ أن الحقائق الاحيائية توجّهه وتشرحه فى ضوء النظريات الطبيعية المهجورة .[2]

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٢) انظر الكتاب المذكور . ص ٢٣٤ . اكسفورد . ١٩٧٨م .

حقيقة الخلافة ومفهومها الصحيح

وهناك ينشأ بحث آخر هام بأنه ما هى صفة كون الانسان خليفة على وجه الأرض وما هى كيفيته ؟ فإن الخليفة لغةً من يكون خلفاً لغيره ، أى يجيىء بعده فيصير مكانه . فالانسان إذاً لمن يخلفه ولمن يقوم مقامه ؟ هذا سؤال مُهم ذو بال . والمفهوم السائد فى هذا الصدد أن آدم عليه السلام كان خليفة الله فى الأرض ، والمراد بالخلافة هى الخلافة الالهية . ولكن هذا التصور الخاطىء ينافى التصور الاسلامى الاصيل . وقد نقد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ــ هذا التصور الباطل نقداً شديداً ، لأن الانسان لن يكون خليفةً عن الله تعالى أبداً . فإن «الخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة ، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف ... وكل هذه المعانى منتفية فى حق الله تعالى ، وهو منزه عنها . فإنه حىّ قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب .»[1]

فالمراد بالخلافة إذاً ليس خلافة عن الله تعالى ، بل خلافة من كان قبله من الخلق كما يقول جماعة من السلف .[2] وقد ذهب إليه الامام ابن تيمية[3] ولذلك أنكر أبوبكر الصديق رضى الله عنه أن

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . ٤٥/٣٥ . طبعة الرياض .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى . ١٥٦/١ ــ ١٥٧ .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . ٤٣/٣٥ .

يكون خليفة لله ، لما قالوا له : يا خليفة الله ! فقال لستُ بخليفة الله ولكنّى خليفة رسول الله ﷺ ، وحسبى ذلك .[1] بل الله سبحانه وتعالى يكون خليفة لغيره من هذه الوجهة ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : «**اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل .**»[2]

وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى رواية أخرى : «**والله خليفتى على كل مسلم .**»[3]

فقد تبيّن بهذه المنصوصات حقيقة الخلافة وتصورها الصحيح فى الاسلام . فإن الخلافة هى النيابة من شتى طبقات الخلق والناس كما يظهر بالكتاب والسنة . ولذلك لم تنسب الخلافة فى القرآن الكريم إلى الله تعالى فى أى موضع من المواضع . أى لم يقل الله تعالى انى جاعل الانسان خليفتى فى الأرض ، بل إنما قال : «إنى جاعل فى الأرض خليفة» يستعمل هذه الكلمة نكرة ، كما يقول فى مواضع أخرى :

﴿يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض﴾[4] .

﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض﴾[5] .

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾[6] .

﴿امّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء

---

(١) المرجع السابق ٤٥/٣٥ . والمقدمة لابن خلدون . ص ١٠٥ . مصر .
(٢) الصحيح لمسلم . كتاب الحج . حديث ٤٢٥ .
(٣) رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الفتن .
(٤) سورة ص الآية ٢٦ . (٥) سورة فاطر الآية ٣٩ .
(٦) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

الأرض﴾[1] .

والخليفة إنما يكون من فرد لفرد ومن بعضهم لبعض ، كما يتبيّن ذلك من الأحاديث النبوية . فقد روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : «**من جهّز غازياً فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله فقد غزا**»[2] وروى البخارى أن النبى ﷺ قال : «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى**»[3] .

ومن ثم ثبت أن الانسان إنما يخلف من كان قبله من الخلق والناس ، حيث يكون خليفة للغائب ، ولا يكون خليفة للحاضر الشاهد . والله تعالى سبحانه لا يكون إلّا حاضراً وشاهداً . فاذاً لا تصلح الخلافة عن الله تعالى .

وجهة جديدة للخلافة :

ثم إنَّ كون الانسان خليفة يثبت حقيقة أخرى بأنه هو آخر نوع من أنواع هذه الكون ، فلا يكون بعده أى نوع آخر . ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلّها**﴾ . فعلّم آدم جميع الأسماء وسائر المسمّيات ، أى جميع أنواع المخلوقات وجل مظاهر الحياة التى خلقت قبل آدم . فلا نوع إذا باق ولا هوآت بعده . وهو فى الواقع نبأ بأن لم تبق هناك مسافة شاسعة بين البشر واليوم الآخر . كأنه قيل : فليستحضر الانسان يوم القيامة .

ويؤيد هذا المفهوم والاتجاه ما روى عن السلف عن خلق آدم

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٢) الصحيح لمسلم . كتاب الامارة . حديث ١٣٦ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ١٤٤/٤ . طبعة استانبول .

عليه السلام ، بأنه خلق بعد ما خلقت السماوات والأرض وما فيهن فى ستة أيام ، فخلق آدم فى يوم الجمعة فى آخر ساعة من ساعاتها .[1]

ويناصر العلم الجديد ادّعاء الاسلام ، بأن الانسان «خليفة» من الوجهة الاحيائية (BIOLOGICALLY) من حيث إنه لم يظهر أى نوع حىّ «راق» بعد ظهور الانسان منذ قرون طوال . فإن النوع الانسانى لا يزال غير متطور منذ بدايته إلى يومنا هذا ، ولم تبد علامته حتى الآن . وهناك سؤال هام يبرز فى الأذهان : فهل توقّف هذا القانون ــ المزعوم ــ على الانسان فلم يتجاوزه ؟ فما هو الدليل العقلى على صحة هذه النظرية الخاطئة ؟ وعلى كل ، فإنه تتحقق هناك الوجهة القرآنية بأن الانسان خليفة ، أى آخر المخلوقات على وجه الأرض . ولقد تواترت الأحاديث النبوية على أن القيامة سوف تقوم على الانسان الموجود ، أى النوع الأخير الموجود الآن .

معنى الخلافة الاصطلاحى :

استعرضنا كلمة الخلافة ومعناها اللغوى . فأما معناها الاصطلاحى فهو أن الانسان خلق مسؤولاً ومكلّفاً لأداء واجبات الدين .. كما يتبيّن ذلك بقوله تعالى :

﴿ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾[2]

---

(۱) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ، ٦١/٢٤ . والدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى . ٣٦١/٥ .

(۲) سورة يونس الآية ١٤ .

فمن مثل هذه الآيات تتبيّن الغاية المقصودة بالخلافة فى الأرض أن الانسان نوع مسؤول ، فما بعث الا ليبلوه ربّه فى ساحة العمل . وسيلقى مصيره المحتوم السيىء إذا عصاه وخالف أمره ، كما لقيت الأمم الماضية مصيرها من قبل .

فالانسان من هذه الوجهة سيّد هذا العالم وحاكم على جميع مخلوقات الدنيا . فعليه أن يعامل كل مخلوق ما يناسبه ويوافقه ويبدى له عواطف الودّ والرحمة ، لأنه ممثّل من ربّ العالمين الذى هو الرحمن الرحيم ، الشفوق على سائر المخلوقات والعوالم . ولذلك أعطاه الله تعالى علم جميع الأسماء وخصائصها ، لكى يكون على خبرة ومعرفة عن كل هذه الموجودات والكينونات فالخلافة فى الأرض إذاً لها أهمية قصوى ومسؤولية ثقيلة ، كما يظهر بقوله تعالى :

﴿يا داؤد انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[1] .

وخلاصة هذا البحث أن الانسان خلق بأمر خصوصى وتدبير الهى كامل ، فليس هو حادث بالصدفة والاتفاق ، ولا هو وليد الارتقاء المزعوم المُخطىء . وبالتالى فليس هو حرّاً مطلقاً فى أفعاله وأعماله يفعل ما يشاء . فقوله تعالى : **﴿انى جاعل فى الأرض خليفة﴾** يبدى لنا بكل وضوح أن هناك خطة الهية وتقدير ربانى فى الخلق والأمر . كما أظهر سبحانه وتعالى قضاءه المبرم وعزمه المحكم .

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

وهذا هو التصميم الالهى الذى بيّن فى مواضع أخرى فى خلق جميع الموجودات الكونية بقوله :

﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[1] .

﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾[2] .

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[3] .

فليس الإنسان ولا أى شيء من الموجودات الكونية نتيجة صدفة واتفاق . وهذا التصور الخاطىء يخالف التصور الاسلامى بكل معناه وأطرافه .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢ . (٢) سورة القمر الآية ٤٩ .
(٣) سورة الرعد الآية ٨ .

أهمية الانسان فى هذا الكون

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ ، هذه الآية تشير أيضاً إلى دليل ناصع بأن الله تعالى قد جعل لغة ولسانا لتعليم هذه الأسماء . لأن اللغة إنما هى الواسطة لابداء الخواطر وتفهيم الأفكار بين شخصين . وبناءً على ذلك فإن الله سبحانه هو أول من وضع اللغة والمعجم . فليس من وسع الانسان أن يأتى بلسان بظهوره على الفور ، ولا يستطيع أن يتعلّمه بدون معونة خارجية . بل إنما هى موهبة من الله تعالى عز وجل .

ومن ثم يتّضح أن الله سبحانه لم يترك الانسان بعد ما خلقه وحيداً فى ساحة الحياة ، يتيه ويتحيّر ويضطرب . بل انه أرشده وحفظه فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، مثل الوالد الشفوق الذى يمسك ولده ويرشده فى الشؤون المختلفة . فلم تنقطع علاقة الرب بالانسان فى أية لحظة من لحظاته . بل كان الخالق هو المعلّم الأول الذى علّم الانسان جميع ما يحتاجه من أمور الدين والدنيا ، لكى يفوز الانسان فى مجال الخلافة ويؤدى مسؤوليّاته التى ألقى ربه على عاتقه .

وهذه البيّنات تنفى جميع تخيّلات الفلاسفة والدهريين الذين يزعمون بأن الانسان حرّ طليق فى هذا العالم نفياً بيّناً ، وأن ليس

هناك قوة كونية مرشدة وراء المظاهر المادية ، وأن فعلية الخالق إنما هى الخلق والتكوين فحسب ، وليس له حق الارشاد والتوجيه ، وأن هذا الكون يسير تحت تأثير أعمى وقدرة عمياء من غير موجد ومدبّر ، وأن الكون يجرى مثل ماكينة بنفسها . وقد ردّ الله تعالى هذه الأقاويل الباطلة وعلّق عليها فى أسلوب فريد حيث يقول :

﴿وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الّا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الّا يظنون﴾[1]

قد تحقق من هذه التوجيهات أن الله تعالى قد خلق هذا الكون لهدف عظيم ، وزيّنه بجميع مرافق الحياة وحوائجها . ثم أرشد الانسان فى شؤنه المختلفة رحمة له وعطفاً عليه ، لم يتركه وحيداً حيران قط . بل إنه قد اصطفى عباداً مكرمين لهداية البشر من عهد آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فأنزل كتبه تبييناً لرسالته وارشادا للبشر. فالقرآن الكريم هو كلام رائع ونموذج مدهش لهذه الرسالة الخالدة الربانية . وهو المثل الأعلى والكلام الإلهى الخالد البديع الذى يتحيّر له عقل البشر. فلا يكون إلّا من عند الله عز وجل .

ثم إنَّ هذا القرآن هو خير نموذج لرحمة رب العالمين ورأفته على عباده ، كما أن هذا الكون مظهر من مظاهر عطفه . فالأول يظهر عطفه ورحمته على العباد من حيث المعنى ، بينما الآخر يبدى ذلك من الوجهة المادية . فكلاهما ضرورى ولازم . لأنَّ أحدهما يزيّن

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

حياتنا الدنيوية بينما الآخر يحسّن حياتنا الشرعية والأخلاقية والاجتماعية ويؤدى إلى النجاة الأخروية .

وهاتان علاقتان أساسيتان لارتباط الانسان بخالقه وربه . فالعلاقة الأولى طبيعية (NATURAL) والثانية شرعية (MORAL) والتوازن بينهما أو عدم الانحراف من جانب هو المطلوب . والترابط بين علاقتهما هو صنيع الاسلام . فإن الاسلام قد أوضح الروابط الصحيحة بينهما وأعطى الانسان التصور الجامع المتوازن الذى يصلح الحياة البشرية ، وليس فيه أى نقص ولا عيب . وقد قال تعالى :

﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخْسِرُوا الميزان﴾ [١]

---

(١) سورة الرحمن الآية ٩ .

علم الأسماء يكشف النظام الإلهى

إن دراسة علم الأسماء وبحثه فى الواقع محاولة جادّة لفهم النظام الالهى الذى يتمشّى فى هذا الكون بين المظاهر المادية المتعددة وأنظمتها المتنوّعة المتحيّرة التى تتعلق بربوبية الله تعالى. ومن هذا الاعتبار لا بد «للخليفة» أن يغوص فى معانى علم الأسماء ونظام الربوبية، ليكشف الأسرار بينهما ويزيل ستار الشبهات التى يوردها المنكرون بوجود الله تعالى.

ومن أجل ذلك أكّد القرآن مراراً على التفكير فى أنظمة الكائنات والوصول بذلك إلى النتائج الصحيحة السديدة. وذمّ الذين يختارون الاتجاهات المنعطفة فيعرضون عن الطريق. كما يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وان عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ (١)

وقال تعالى: **﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾** (٢)

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٥.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥.

والحق أن السموات والأرض لتحتويان على نظامات رقيقة مليئة بالأدلة العلمية القطعية اللا محدودة على وجود الخالق والرب تعالى . فمن المستحيل الاعراض عنها واغماض العيون منها الا من هو مكفوف البصر. فآثار الفطرة وعلاماتها هى الآيات الدالة على خالقها ، وهذه الآيات تنطق بلسانها العجيب المرموز عن وجود مدبّر ومنظّم يحيط بجميع الأشياء والكينونات .

وهذا البحث والدراسة هو الاستعراض لتدوين الأدلة العلمية الكونية ، التى نستطيع أن نعبّر «بالأدلة الآفاقية والأنفسية» بمقتضى لسان القرآن الكريم ، لتمام الحجة على الالحاديين والماديين الذين يحاولون أن يصدّوا السبيل بشتى توجيهات خاطئة خاسرة تجاه نظامات المظاهر الكونية . ولذلك حرّض القرآن الكريم على التفكير فى النظامات الكونية ومحتوياتها بأساليب متنوّعة . فقد قال الله تبارك وتعالى :

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لاولى الألباب﴾(١)

﴿ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابّة آيات لقوم يوقنون﴾(٢)

﴿وفى الأرض آيات للموقنين . وفى انفسكم أفلا تُبصرون .﴾(٣)

﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .
(٢) سورة الجاثية الآية ٣ ـ ٤ .
(٣) سورة الذاريات الآية ٢٠ ـ ٢١ .

رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكّر إنما أنت مذكّر﴾[1] .

فالذين لا يستخدمون عقولهم فى هذا التفكير والتأمل فى آيات الكون ويعرضون عن الأدلة العلمية المستنتجة الدالة على وجود الرب والاله بطريق النتاج المنطقى الصحيح ، فهم الأنعام والبهائم فى خلق الله تعالى كما يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والانس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم اذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2]

وكانت الحكمة الالهية تقتضى فى تعليم آدم الأسماء ، أن ينتشر هذا العلم فى أولاده وأن تُدَعَّم النوادى والمجالس العلمية بالدليل والاستدلال ، فتصبح أسواق الحجة والبرهان قوية ظاهرة . ولكن حدث سوء الفهم فى بعض الأوساط العلمية فى العصر الراهن من أن العلوم الكونية أى العلم الحديث (SCIENCE) يرادف المادية والمذهب الطبيعى . والحق أنه ليس فى العلوم الحديثة فى طبيعتها الأصيلة شىء منها أو شائبتها ، بل هذا العلم أصبح اليوم أداة كبيرة فعالة فى تصديق القرآن ومحتوياته . وإنما الخطأ فى الأفكار المعوّجة المنحرفة لبعض العلماء الماديين ، لا فى طبيعة هذه العلوم بنفسها . فعلينا أن نتصدّى لهذه الأفكار الباطلة ونبطل ماكان من النظريات الخاطئة . ولكن يجب علينا التسلّح بهذه العلوم والنّظريات لردّها

---

(١) سورة الغاشية الآية ١٧ ـ ٢١ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

وابطالها بأحسن طريق . وعلى كل فإن العلم الحديث فى الواقع عبارة عن دراسة حرّة وتفكير حرّ فى آثار الكون ومظاهره . فمنهاجه استعراض أسرار الكون وضبط قوانينه والاستنتاج العلمى بطريق الاستقراء (INDUCTION) . وهذا هو المنهاج القرآنى الذى يرشد الناس إليه بأساليب متنوعة متكررة ، ويحضّهم على الأخذ به . فمن هذه الوجهة جميع العلوم الحديثة تلائم منهج القرآن الكريم ونظامه المرسوم . وبالتالى فإن النبوغ فى العلوم الكونية حاجة الساعة ، والاشتغال فى البحوث العلمية على هذا الموضوع ضرورة علمية ودينية . فلا يمكن التوجيه العلمى بدونه فى مجال الفكر والنظر ، ولن يُمَهَدَّ لنا سبيل النهضة الاسلامية بدونه أبداً .

هناك هدفان أساسيّان لاستعراض الأدلة القرآنية على مستوى المنهاج الحديث ، وهما من معالم القرآن لتدوين الأدلة الآفاقية والأنفسية ـ كما يسمّيه القرآن بمصطلح خاص .

أولها : الازدياد الموفور فى ايمان المؤمنين وتحريضهم على الصبر على دينهم مواجهة للغزو الفكرى الحديث .

وثانيهما : ازالة شبهات الجاحدين بالله واتمام الحجة عليهم كما يقول تعالى :

﴿حمٓ . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الريح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . فبأى حديث بعد الله وآياته

يؤمنون﴾[1]

وقد قال تعالى : **﴿لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين﴾**[2]

علم الأسماء يمهد الطريق إلى معرفة الله تعالى :

الغرض المهم من دراسة علم الأسماء وبحثه هو الوصول إلى معرفة الله تعالى . فإن الانسان يشاهد فى دراسة الربوبية لمعات صفاته العجيبة من وحدته وقدرته وحكمته ونظمه وتدبيره ما يتحيّر له العقل الانسانى من هذه الاشراقات الربانية . فإذا بلغ الانسان هذا المبلغ وشاهد من الأنوار الالهية فلا مجال له أن يتيه فى ساحات الأفكار الخاطئة والنظريات المنحرفة والتصورات الباطلة . فإن الله تعالى يقول :

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون . هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحُسنى يُسبّح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[3]

هذه الآيات إنما هى نتيجة النتائج من دراسة العلوم الكونية وخلاصة العلم الحديث المتوجة . فكل من يبحث هذه المظاهر المادية وعلومها ومعارفها بدون تحيّز وتعصّب لعقيدة ما ، فإنه سينتهى إلى هذه النتيجة المنطقية حتماً مقضياً . فمن هذه الناحية

---

(١) سورة الجاثية الآية ١ ـ ٦ .　　(٢) سورة يس الآية ٧ .

(٣) سورة الحشر الآية ٢٢ ـ ٢٤ .

ليست هذه الآيات سهلة ، بل هى عُصارة القرآن العظيم يتلألأ فيها نور القرآن نظراً إلى معارف العلوم الحديثة . ولذلك لها فضيلة وأهمية كبرى فالحديث النبوى الشريف يحضّ كل مسلم على قراءة هذه الآيات الثلاث فى كل صباح[1] . وكأن هذا تحريض على التأمل لما فيها من المعانى والحقائق .

ومن هذا المنظور : فمن ينتهى إلى هذه الدرجة فكأنه بلغ إلى هذا الكون ومعرفة الرب تعالى . وهذا هو المفتاح الرئسى الذى يفتح به جميع الأبواب الكونية المغلقة . وهذا هو المقصود من دراسة العلوم الكونية من الوجهة الاسلامية . كأن المقصود منها أن ينظر الانسان إلى أشياء الكون وموجوداته بنور الله تعالى وهدايته . كما قال سبحانه :

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النّاس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾[2]

إن الله يحيط بكل شىء علماً :

قد تبين بهذه التفاصيل أن الله عز وجل عليمٌ بجميع أشياء الكون وموجوداته من حيث إنه خالقها ومدبّرها ، فيعلم سائر أدوات الكون وماكيناته . ولذلك علم آدم أسماء هذه الموجودات وصفاتها وخواصها فى بداية الأمر . وإن لم يكن عالماً وخبيراً بهذه العوالم والموجودات وخصائصها لم يتسنّ له تعليمها لآدم . فهذه

(١) كما رواه الترمذى وأحمد . انظر مختصر تفسير ابن كثير : ٣/٤٨٠ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

هى الحقيقة الأبدية والسرّ الواقعى الذى جهل الفلاسفة فهمه وعجزوا عن كشفه ، حيث يقولون : إنَّ الله تعالى لا يعلم جزئيات هذا الكون دون الكليات . والذى تولّى كبر هذه الدعوى فى تاريخ الاسلام أولاً ، هو ابن سينا اتّباعاً للفلاسفة القدماء الذين سبقوا قبله . فقد ردّ الله تعالى هذا التصور الخاطىء بقوله :

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [1]

﴿وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم﴾ [2]

﴿ألا انّه بكل شىء محيط﴾ [3] .

---

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

(٣) سورة فصلت الآية ٥٤ .

قوانين الفطرة لا تقبل التطور

بَانَ من هذه الملاحظات أن الكائنات وما فيها من المظاهر المادية أَنها تجرى بنظام محكم وترتيب منسجم وتأديب كامل ، وليس فى نظاماتها أية تغيّر ولا فى أصولها شائبة من التطور والانحراف . فهى الآن كما كانت فى أول يومها . لقد كوّنها خالقها وبارئها وأودع فيها صفاتها ومميّزاتها التى لا تتغيّر ولا تتبدل . ولو كانت هذه الخواص والآثار قابلة للفوضى والانتشار لم يتسنّ تعليمها . فضبط القوانين المادية ونظمها ـ كما نجدها اليوم مرتبة ومنضبطة فى دواوين العلم ـ تدل على قانون محكم البنيان . فقد أظهر الله تعالى هذا السرّ وكشف الستار بقوله :

﴿الله خالق كلّ شىء وهو على كلّ شىء وكيل﴾ [1]

﴿وخلق كلّ شىء فقدره تقديراً﴾ [2]

﴿سبّح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والّذى قدّر فهدى﴾ [3]

أى خلق جميع المخلوقات وسوّى واصلح أنظمتها الجسمية . وقَدّر لها قوانين طبيعية وفطرية ، ثم أرشد كل مخلق يسير طبقاً لِما قُدّر

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٢ .   (٢) سورة الفرقان الآية ٢ .
(٣) سورة الأعلى الآية ١ ـ ٣ .

له من القانون الطبيعى المرسوم والنظام المتهيّأ له من بارئه سبحانه وتعالى ، فإن هذه أصول ربانية محكمة البنيان ، وكلّيات واسعة المدى ، التى تضمّ إليها سائر العوالم من الجماد والنبات والحيوان والفلك . فمن ذرّة صغيرة (ATOM) إلى نظام شمسىّ كبير ، تجرى هذه القاعدة الربانية طبقاً لهذه الكلّيات والمبادىء . ومن هذا المنظور لم يجعل الله هذه المخلوقات طُلَقاء ، ولم يلق الحبل على غاربها بعد ما خلقها وأوجدها من ستار العدم . بل انه ينظمها بنسق دقيق وتدبير بالغ ونظام مدهش ، ليس فيه فوضى ولا انحراف .

﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوتٍ ، فارجع البصر هل ترى من فُطور . ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير﴾[1] .

التوافق بين الشريعة والفطرة :

ومن هنا يتفرع أصل آخر بأنه ليس هناك تخالف فيما بين الدين والفطرة (NATURE) أصلاً بل كل منهما ينسجم انسجاماً كاملاً ، لأن كلاهما صدر من مصدر واحد . فكما تكوّن أحدهما من صنيعة خالق كذلك الآخر ظهر من تعليمه ووحيه وارشاده . فمن هذه الوجهة كل منهما يكون مساعداً للآخر ، ولا يكون محارباً ولا مصارعاً . وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة الأبدية بقوله :

﴿خلق الله السموات والأرض بالحقّ ، إنّ فى ذلك لآية للمؤمنين﴾[2]

---

(١) سورة الملك الآية ٣ ـ ٤ .   (٢) سورة العنكبوت الآية ٤ .

والانسجام بينهما إنما يدل على أنهما صادران من منهل واحد. فبينما تتجّلى بأحدهما السجايا الربوبية التكوينية الفوقية، تتلألأ بالآخر الصفات الأزلية والحقائق الأبدية. فمن هذه الناحية القرآن والكون كلاهما كمرآة للآخر، تنعكس فيها صورته وتتراءى رُسومه وآثاره ـ قال الله تبارك وتعالى:

﴿وما من غائبة فى السّماء والأرض إلّا فى كتاب مبين﴾[1]

﴿الاَّ يسجدوا لله الذى يُخرج الخَبءَ فى السموات والأرض﴾[2]

﴿قُل اَنزله الذى يعلم السِّر فى السموات والأرض﴾[3].

﴿أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمينَ﴾[4]

﴿لقد انزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفَلا تعقلون﴾[5]

نظام الأسباب والعلل:

إن احاطة المظاهر الكونية بنظامات متقنة وسلكها فى قوانين مضبوطة، لتدلّ على أن الأشياء المادية تذعن وتخضع لقواعد وسنن، وأنّ هناك تأثير مادّى لكل شىء من هذه الأشياء. فكل منها يؤثّر على غيره كما يتأثّر به. والواقع أنه قد أودع فيها بَارِؤها صفاتٍ وتأثيرات تُولد صفاتٍ وتأثيرات أخرى إذا تقابلت وتعاملت. فهكذا تتواصل الأشياء والموجودات وتتسبّب بتولّد

(١) سورة النمل الآية ٧٥.
(٢) سورة النمل الآية ٢٥.
(٣) سورة الفرقان الآية ٦.
(٤) سورة العنكبوت الآية ١٠.
(٥) سورة الأنبياء الآية ٦.

الأسباب والعلل . فالعِلَل والمسبّبات إنما هى تأثيرات هذه الأشياء وتأثّراتها .

ومن هذه الوجهة فالله تعالى هو الذى جعل هذا النظام الواسع لابتلاء البشر بحكمة بالغة ومصلحة تامة وبكمال الدقة ، لا يتصور الانسان فوقه . وكتاب الله الكريم يُقرّ هذه الحقيقة العظمى بكلمته الخالدة ، كما يقول :

﴿وأنزل من السماء ماءً فاخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى﴾ [1]

إن هذه الآية الكريمة لتدل على أن ماء المطر هو السبب المادى لانبات مختلف النبات ، كما هو مذكور فى مواضع أخرى . فقد صرح فى موضع آخر بأن وجود ألوان مختلفة ومتنوعة فى الثمار إنما هو بالماء والمطر :

﴿ألَم تر أن الله انزل من السماء ماءً فاخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها﴾ [2]

وكذلك يتجلّى لنا من خلال المنصوصات القاطعة بأن الطعم الذى فى هذه الثمرات وحلاوتها كذلك تختلف وتتفاوت . ثم منها تتكون الأدلة العلمية للعلماء والباحثين إذا تأمّلوا وتدبّروا فيها ، كما يقول سبحانه وتعالى :

﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوانٍ يُسقى بماء واحدٍ ونفضّل بعضها على بعض فى الأكل إنّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ [3]

---

(١) سورة طه الآية ٥٣ . (٢) سورة فاطر الآية ٢٧ .
(٣) سورة الرعد الآية ٤ .

ففى هذه الآيات كلّها الباء هى «الباء السببيّة» ، كما صرّح بذلك شيخ الاسلام ابن تيمية[١] . انه يقول : «والعلماء متفقون على اثبات حكمة الله فى خلقه وأمره واثبات الأسباب والقوى . وليس من السلف من أنكر كون حركات الكواكب قد تكون تمام أسباب الحوادث ، كما أن الله جعل هبوب الرياح ونور الشمس والقمر من أسباب الحوادث» .[٢]

ثم ذكر بعض الأحاديث النبوية التى تدل على اثبات الأسباب المادية . فنها ما رواه : «أن النبى ﷺ نظر إلى القمر وقال لعائشة تعوّذى بالله من شرّ هذا ، فان هذا هو الغاسق إذا وقب» .[٣] والاستعاذة إنما تكون بما يحدث عنه شر»[٤]

ونتيجة هذا البحث أن الأشياء المادية تؤثر وتتأثر ، وأن هناك تأثيرات نوعية وفردية ، وهى من نتائج صفات خاصة يملكها كل نوع من الأنواع فيولد صفات أخرى متفاوتة ، إذا تلاقى الشيئان فتعاملا وتفاعلا . مثل الماء واللبن إذا التقيا زال كيان الماء ، لأن اللبن يغلبه . ثم إذا ألقى فيهما السكّر جَعَل كليهما حُلوّاً يزيل فطرتهما التى كانا عليها . فهكذا جميع الخواص المميزة تعمل أعمالها وتُبدّل صفات غيرها فى مجال الطبيعة . وبناء على ذلك فان رفض هذا العلم برمته إنما هو انكار للنصوص القرآنية .

---

(١) انظر كتاب الرّد على المنطقيين . ص ٢٧٠ . طبعة لاهور . ١٣٩٦هـ .
(٢) المرجع السابق . ص ٢٧٠ .
(٣) قال الخازن : المراد به القمر إذا خسف واسودّ . ومعنى وقب دخل فى الخسوف .
(٤) كتاب الرّد على المنطقيين . لابن تيمية . ص ٢٧١ .

ثم إن هذا العلم يساعدنا اليوم فى استنباط الأدلة العلمية الكونية مواجهةً للغزو الفكرى المادى الحديث بأحسن طراز . لأن هذا العلم يفيد الاستنباط للأدلة العلمية على وجود الخالق الرب الذى أنشأ هذه الكينونات والمظاهر بخواصها المختلفة ومميّزاتها المتنوعة . فان اختلاف هذه المظاهر والكينونات ليقتضى خالقاً ورباً ومدبّراً يملك قوةً خارقة العادة وفوق الطبيعة . لأن هذه التنوعات إنما هى المعجزة الربانية ، ولا تكون الا من له قوة فوق الطبيعة العادية . وانها لمن الأسرار الالهية التى لم يصل الانسان إلى كُنهها على رغم رقيه ونُبوغه فى العلوم . كما سيأتى تفصيلها .

خصائص الأشياء :

ماهى خاصة الشىء أوصفته المميّزة؟ والجواب أن النار تحرق ، والماء يُطفىء النار ، ويسكن الظمأ ، كما أنه يُساعد فى جهاز الهضم ، وينبت نباتاً مختلفاً . والماء جزء رئيسى فى سائر الأشياء الحيّة ، كما اكتشفه علم الكيمياء بأن الماء هو جزء البروتوبلازم (PROTOPLASM) . ويتركب الماء من عنصرين الأكسجين والهيدروجين . والسمّ يقتل كل من يأكله . والسكر يُحلّى الفم ، والملح يجعله مرّاً . والملح يتكون من الصوديوم (SODIUM) والكلورود (CHLORIDE) عنصرين أساسيّين . والليمون فيه فوائد طبية . وكذلك فى كل من البقول والثّمار والفواكه منافع خاصة تختلف عن غيره . وبالتنفس نحن نتنشق الأوكسجين (OXYGEN) ونلفظ ثانى أوكسيد الكربون

(CARBON DI OXIDE. والنبات يتغذى بثانى أوكسيد الكربون ويلفظ الأوكسجين خلافاً للحيوانات . وهذا كله من النظامات الربانية العجيبة المدهشة التى لا يستطيع الانسان أن يفهمها فهماً صحيحاً .

وكذلك الأغذية والبقول والثمار التى نأكلها . تحتوى على المواد اللحمية (PROTEINS) ومواد النشا (CARBOHYDRATES) والمواد الشحمية (FATS) والمالحات المعدنية (MINERAL SALTS) والفيتامينات (VITAMINS) . هذه هى أجزاء أساسية لكل غذاء يتناوله انسان وحيوان . وهى تلعب دوراً مهماً فى الأجسام الحيوانية نمواً وصحةً . والانسان لا يكاد يعيش ولا يحيي بدون النبات وأعماله .

وكذلك تضيء الكهرباء بيوتاتنا . والكهرباء قوة هامة كشفت فى العصر الحاضر . وهى جريان الالكترونات (ELECTRONS) فى خط مستقيم . فإن جريانها بسرعة عظيمة ينشيء الضغط ، فتتولّد منه القوة والحرارة . وإذا سخّن شيء يخرج منه الحرارة والبخار كذلك . وهذه الحرارة تقيّد وتستخدم لشئون هامة ، فتتحرك منها الماكينات وتجرى القطارات والسيارات وغيرها . فالكهرباء والحرارة يتمان كثيرًا من حاجاتنا المدنية .

وكذلك توجد فى الذرة (ATOMS) قوة عظيمة ، تسمّى الطاقة الذرية (ATOMIC ENERGY) وهى اليوم منبع كبير لتحصيل الكهرباء فى الأمم الراقية ، وتستخدم فى تسيير الباخرات والغواصات والصاروخات ونحوها . ومن الطاقة الذرية تكوّن القنبلة الذرية

الهائلة التى تقشعر منها الجلود ، نظراً إلى ما فيها من تدميرات وتهديدات .

وكذلك النور يقطع مسافة مائة ألف وستة وثمانين ألف ميل فى ثانية واحدة . وقد تمكنت التكنولوجيا الحديثة من نشر الأصوات حول كرة الأرض بتيارات البرق المغناطيسى ، فنستطيع أن نسمع أنباء العالم بمذياعنا على الفور . وكذا نستطيع أن نتكلم بالتلفون الذى هو مصنوع على أساس القواعد الطبيعية للصوت (SOUND) من أقصى العالم إلى أقصاه . كما يتسنى لنا ارسال الخطابات إلى أى بقاع العالم بوساطة ترانسميتر وتيليبرنتر وتلكس ونحوها فى أقل من ثانية واحدة .

هذه أسئلة عديدة من نواحى مختلفة تهيأ لنا فكرة وخبرة فى مجال العلم ، وتبدى لنا الحقائق عن عوالم العلل والتأثيرات التى تحيط بنا فى جميع شؤون الحياة العادية والمدنية والاجتماعية . فلا نصرف عنها النظر لِلحظةٍ واحدة .

هكذا يبحث العلم الحديث والطب الحديث عن جميع الأشياء والموجودات باعتبارات مختلفة ووجهات شتى . فمعرفة خواص هذه الأشياء وتأثيراتها ثم الانتفاع والاستخدام بها عملياً هو «التسخير» فى مصطلح القرآن الكريم . وبهذا التسخير يتمتع الانسان بنعم الله تعالى ، كما ذكر ذلك سبحانه بقوله :

﴿الم تروا ان الله سخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[1]

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٠ .

﴿وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [1] .

فالتسخير أو استخدام الأشياء المادية هو الذى يسمّى بالتكنولوجيا فى العصر الراهن . ولاتمام هذا الهدف لابد لنا من دراسة التكنولوجيا والنبوغ فيها حسب مقتضيات العصر لاسترداد مجدنا واسترجاع مفقودنا .

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣ .

الخطوة الأساسية للنهضة الاسلامية

إن هذه العلوم المادية والتكنولوجيا لها أهمية كبرى فى مجال النهضة الاسلامية . لأن هذه العوامل والتأثيرات قد احاطت جميع أمم العالم ومنطلقاته بتقدم العلم والتكنولوجيا . فقد أصبحت اليوم هذه العلوم والفنون ذات أهمية بالغة فى المجال المدنى والحضارى كما أصبحت فى المجال العسكرى والسياسى . فمن تسلّط عليها وتسلّح بها فقد سيطر على سائر الأمم والشعوب يخوّفهم ويهددهم بقواته المسخّرة وطاقاته المستخدمة التى نالها من تأثيرات هذه الأشياء المادية كما نشاهد ذلك فى هذا القانون الطبيعى الذى عيّن الله تعالى للعالم البشرى .

فمن هذا المنظور لا بد للنهضة الاسلامية النبوغ وكمال الخبرة فى العلم والتكنولوجيا . وهذا مطلوب من الوجهة الشرعية أيضاً ، كما بحثنا عن ذلك فى موضع آخر . والحق أن هذا العالم كله محيط بالأسباب والعلل المادية ، كما رأيناه من قبل . فلا يجوز لنا أن نغمض العيون عن هذه الدوافع والباعثات . وهذه النهضة لا تتحقق أبداً على دعائم الأمانى والأحلام ، دون السعى والجهد المثبت . ولا بد لذلك العمل العظيم من التبديل الجذرى فى مناهج التفكير ، بأن يصبح المسلمون أصحاب الحقيقة والخبرة . فكل من

يهمل القانون الطبيعى (NATURAL LAW) الذى هو القانون الالهى سوف يلقى مصيره ويصبح فى ذمة التاريخ .

يقول الامام ابن القيم الجوزية فى كلامه عن ربط المسبّبات بالأسباب بعد أن ذكر بعض الأحاديث النبوية فى الأمر بالتداوى :

«وفى هذه الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع داع الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها . بل لا يتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات معطلها أن تركها لمسبّبات قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل كما يقدح فى الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن أقوى فى التوكل . فإن تركها عجزاً ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ودفع ما يضره فى دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، والاكان معطلاً للحكمة والشرع . فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ، ولا توكله عجزاً» .(١)

هذا بيان شامل بجميع الحكم والبصائر ، ويشرح لنا حقيقة الدين . وهذه المبادىء والأصول التى وردت فى هذا البيان لا تختص بمجال الطب والصحة فحسب ، بل انها تعم جميع نواحى الحياة وجهاتها . لأن الله تعالى خلق هذه الكائنات بحيث يكون كل جزء من أجزائها مربوطاً بآخره ، فلا يستغنى أبداً بعضه عن بعض . وإنما الغناء لله الواحد القهار الذى هو الغنى وحده عن العالمين ، ولا

---

(١) زاد المعد فى هدى خير العبد . لابن القيم الجوزية . ٦٧/٣ من توزيع دار الافتاء بالرياض .

يستغنى أحدٌ سواه .

الأسماء فقط ، ليست الحقائق :

ولا يتم هذا البحث عن الأسماء ومتعلقاتها حتى نستعرض اتجاهاتها السلبية مع اتجاهاتها الايجابية . وكلتا الوجهتين لا بدمنهافى مجال الفكر والفلسفة لتنوير عقولنا وتزكية أذهاننا . ويتّضح بهذا البحث حقيقة «علم الأسماء» أو قل كيفية «علم آدم» ونمطه ومنواله ، كما تتجلّى لنا معجزة جديدة من القرآن الكريم واعجازه العلمى العجيب المدهش الذى لم يشاهده النوع البشرى قط من قبل ، ويخيّل إلينا بذلك أن دعاوى القرآن العظيم ــ التى ادّعاها قبل أربعة عشر قرناً ــ لاتزال محكمة البنيان ، وثيقة العرى ، من غير نسخ ولا تبديل . ويتّضح بهذه البحوث ناحيات جديدة من الحكم والبصائر الناصعة التى يتبيّن من خلالها منهاج القرآن المدهش من القرآن وبطولته العجيبة الكاشفة عن الحجب والستائر الكثيرة ، العارضة علينا حقائق عارية . ولكن كل ذلك ينكشف وينجلى لنا بفحص واستعراض دقيق فى المعارف القرآنية والعلوم الحديثة ، وبالولوغ والتغلغل فى أسرارهما ، ثم المقابلة والمقارنة بين حقائقهما التى تثبت بالفحص والتفقه والدراسة العميقة .

فالانسان المعاصر مع تقدمه فى شتى مجالات العلم ووقوفه على خصائص الأشياء وتأثيراتها من ناحيات كثيرة بكل دقة ، ورغم اطلاعه الواسع على أجزاء المادة وذراتها وعناصرها وفاعلياتها ، لم يستطع حتى الآن أن يدرك الحقائق الأصيلة لهذه الأشياء وكيفياتها

ولم يستطع أن ينتهى إلى كنه أسرارها الباطنة ويكشف عواملها السرّية المستورة بل لا يزال علمه وادراكه موقوف على معرفة ظواهر الأشياء وفاعلياتها الظاهرة فقط . فلن يفوز الانسان أبداً فى هذا المجال وان يرتقى على سلّم التقدم إلى أعلاه ، كما تثبت هذه الحقيقة بدراسة العلوم الحديثة .

هذه هى الحقيقة العظيمة التى قد كشفها القرآن منذ قرون متطاولة . كما يتجلى الأمر من نفس الآية المبحوث فيها ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ أى علم الأسماء فقط دون الحقائق والأسرار ، فإن الانسان من هذه الوجهة إنما يعرف «أسماء الأشياء» فحسب ، ولا يعلم كيفياتها الباطنة . وفاعلياتها الأصيلة ، فهى إذا مجهولة الادراك ومسدودة الباب . فإن الانسان المعاصر ـ كما ذكر الأستاذ السيد سليمان الندوى ـ علمه قائم نفس مقام يومه الأول (لا يتحرك ولا يتقدّم) .[1] فإن هذه مطابقة تامة فى منصوصات القرآن الكريم والعلم الحديث بكل معناه . كأن الانسان وعلومه تصدق الكلام الربانى بكل عجز وتواضع فى كل عصر وزمن .

وعلى كل ، فالأسماء التى عرفها الانسان فى أول يومه هى باقية على سيرتها الأولى ـ سواء تتعلق بالمسميات أو بالآثار والخواص ـ ولم يتمكن الانسان الجديد على أية زيادة فيها على رغم تقدّمه من جهات كثيرة ، وهو اليوم يدقّق الأشياء تدقيقاً ويفحصها فحصاً تاماً لا يمكن التصور فوقه ، فيكشف عن أجزاء جديدة ، وذرات

---

(١) انظر كتاب «السيرة النبوية» فى الأردية . ٤/٤٩٠ .

حديثة ، وصفات متنوعة ، ونعوتٍ وعللٍ كثيرة ، ينتفع بظواهر هذه الفاعليات وسماتها ، ولكنه لا يدرك بواطنها ، ولا يستطيع أن ينتهى إلى كنهها ، كأنه أعمى من هذه الجهة .

هذه هى أكبر الحقائق التى ظهرت وثبتت من استعراض العلوم الحديثة وفحصها ، وليس فيها أى نزاع ، كما يتحقّق الأمر بنفس اعترافات علماء هذه الفنون ، كما سنلاحظها فى الصفحات الآتية .

إن الانسان المعاصر ـ من هذه الناحية ـ قد كشف الغطاء عن جوانب كثيرة متنوعة من العلوم الطبيعية (PHYSICAL SCLENCES) والعلوم الاحيائية (BIOLOGICAL SCIENCES) واطلع على ما فيهما من مادات متنوعة ، ومواد كيميائية متركبة ، ووظائف متنوعة ، وصفات متحيّرة ، ونكات دقيقة . وعرف علم الخلايا (CYTOLOGY) وما فيه من نظامات متناسقة متراكمة ، وتوصل إلى علم الكيمياء الحيوية (BIO-CHEMISTRY) وما فيه من المركبات والعمليات الكيميائية والتعليلات البيولوجية الظاهرية فى الكائنات الحية . وانتهى إلى علم الحيوية الميكروبية (CHEMICAL MICROBIOLOGY) وما فيه من دقائق وعجائب حيوية ونشاطات مدهشة . ولكنه على رغم هذه المعرفة البالغة والدراسة العميقة واحاطة المعلومات الشاملة ، لم يفز فى كشف السرّ الأساسى أنه كيف تتحرك وتتركب الذرات الكيميائية ، وكيف تنشا التحولات المختلفة فى هذه الذرات ، وما هى عواملها وبواعثها ؟ ثم كيف يتحرك جهاز الخلايا (CELLS) الداخلى

المتراكم المتعقد فى الأجسام النامية والكائنات الحية ؟ وأى تغيرات رئيسية تقع هناك فى بروتوبلازما[1] وكيف يتكون ؟ ثم كيف يسوغ التعامل والتعاطى بين مئات قسم مختلف من الخلايا ؟ وكيف يبتدىء هذا العمل المدهش ؟ وكيف يجرى نظام التبادل بين الخلايا على الدوام بدون أى فساد واختلال وكيف تتركب المواد الكيميائية بتكوين جهاز الخلايا المتعقد ؟ وكيف يتألف شتى تغيرات هذه المواد بنظام واحد بانسجام وتدريب ؟ وكيف توجد ألفة كيميائية بين الذرات والعناصر على اختلاف طبائعها وصفاتها ؟ وكيف تتحد التفاعلات الكيميائية المتفاوتة لغرض واحد وغاية واحدة ؟ ثم كيف يظهر عملية الجينات (GENES) والكروموسومات (CHROMOSOMES)[2] بنظام بديع معجز ؟ وكيف تنتقل الصفات الجينية أو الوراثية من الجيل السالف إلى الجيل المتأخر بهذا التفاعل العجيب بكل ضبط ونظام ؟ ثم ان الأجسام الحية كلها تتكون من مادة البروتين (PROTEIN) وهى مادة أساسية فى البروتوبلازما . ولكن العقل الانسانى عاجز فى فهم تركيب صيغة جزئية (MOLECULAR FORMULA) من بروتين وجهازه التركيبى المدهش .

ونحن نقدم هنا بعض الاقتباسات على سبيل الاستشهاد على ما ادّعيناه سلفاً . يقول عالم نباتى ومؤلف شهير :

«عرفنا أن البروتوبلازما مادة حية فى نفسها . وهى مركبة من

---

(١) المادة الحية الأساسية فى الخلايا النباتية والحيوانية .
(٢) الجينة (   ) واحدة من الكروموزوم وهى جسيمات من الخيط المصبغى الذى يظهر فى الخلية (   ) أثناء انقسام تلك النواة .

البروتينات المتعقدة الكثيرة . ومن أجل ذلك تتحول البروتينات الغذائية ـ التى تدخل فى الجسم من الخارج ـ إلى البروتوبلازما المُشبّك وبتعبير آخر يدخل «الغذاء الميت» فى «الكائن الحىّ» ، وهو البروتوبلازما . وهذا هدف أساسى فى نظام التغذية . ولكن لا نعرف كيف تحدث هذه العملية السرية . بل إنما نعرف أن فى نفس البروتوبلازما توجد هذه القوة» . (١)

يقول باحث أمريكى كريك (F.H.C. CRICK) : «ليس جهلنا العميق أن هناك ماذا يحدث من التفاعلات فى داخل الخلايا ، بل إنما هو ماذا يحدث بين الخلايا . وعلمنا بهذا الصدد قليل زهيد . لأن علمنا الموجود فى شرح مشاهداتنا غير كاف على الاطلاق» . (٢)

ويقول المؤلف الشهير الدكتور الكسس كاريل فى كتابه الذائع صيته بالآفاق : «والحقيقة الواقعية أن جهلنا عميق . ان الذين يدرسون الأشخاص البشرية ، يتعرض لهم كثير من القضايا التى ليس لها جواب . ان الأصقاع الواسعة فى عالمنا الداخلى مجهولة حتى الآن . كيف تتألف أجزاء المواد الكيميائية لتكوين تركيبات عضوية الخلية المؤقّتة المعقدة ؟ والجينيات التى تتركب فى نوات (NUCLEUS) ببيضة (OVUM) ؟ وكيف تنتظم الخلايا بنفس مجهوداتها فى تركيب النسيجات والأعضاء النامية ككتلات

---

(١) Botany, by A.C. Dutta, P 361, Oxford University Press, Calcutta, 1979.

(٢) The Encyclopaedia of Ignorance, P. 302, Oxford, 1973.

وجماعات ؟ .... والمسائل والاستفهامات التى إليها رغبة شديدة فى هذا الصدد كثيرة جداً من غير اجابة لها . وبهذا يتبين لنا أن النبوغ فى جميع العلوم التى تتعلق بالانسان غير كاف ، وأن العلم الذى يتعلق بوجودنا هو فى مقام بدائى) .[١]

ويقول عالم احيائى SIR VINCENT B. WIGGLESWORTH

«القول بأن الجهاز الجسمانى يقاد بالجينيات ، يشكل لنا فى شرحه من الوجهة العلمية من أن يقال أنه يقاد بالله تعالى» .[٢]

ويقول الباحث الأمريكى اسحاق اسيمو ISAAC ASIMOV

«إن قضية تركيب الأحماض الأمينية AMINO ACIDS) فى أجزاء البروتين قد ألقت دنيا العلم فى ورطة الحيرة والاستعجاب» .[٣]

والعلم الحديث كذلك لم يستطع إلى الآن أن يكشف نوعية العلاقة بين المادة والحياة . والحق أنه إذا لم يتمكن البشر على معرفة صحيحة بذرات المادة وحركاتها وفاعلياتها الأصيلة ، فكيف يسوغ له أن يكون على خبرة تامة بمظاهر الحياة وأن يدرك كنه الأحاسيس والمدركات والمشاعر والتعقلات البشرية ؟ فلذلك نراه يقف أمام هذه المظاهر والقضايا حائراً متخبطاً . والعلماء الأحيائيون يبتدعون قضاياهم باعتراف عدم معرفتهم فى صدد الحياة بهذه النكتة :

«الحياة بنفسها حافلة بالأسرار ، وكذلك حقيقة مادّتها لا تزال

---

(١) Man The Unknown, PP. 17-19, Bombay, 1959.
(٢) The Encyclopaedia of Ignorance, P. 252.
(٣) Asimov's Guide to Science, Vol.2, P 80.

مستورة» . [1]

والقضية المهمة الأساسية فى العلوم الأحيائية هى أنها ما هى الحياة وكيف نشأت مادة الحياة ، يعنى البروتوبلازما ؟ ولكن لا يقدر عالم طبيعى أو احيائى على اجابتها ، ولا يتفوّه بقول عنها ، لأنه يكون إذاً قولاً بلا علم وتفوهاً من غير خبرة ومعرفة . لأن هذه القضية لا تتعلق بالطبيعة فحسب» ، بل إنما هى ترجع إلى ما وراء الطبيعة .

ويعترف الدكتور كاريل بهذه الحقيقة فى كتابه «الانسان ذلك المجهول» بقوله :

«إن هذه الكائنات مكوّنة بطاقات مجهولة مختفية .... وخلقت من مادة مجهولة بكل دقة فنية من الطبيعة والهيئة» . [2]

والعلماء كلهم صامتون فى هذا الصدد ويتوجهون إلى دراسة القضايا التى هى أدون منه ويغمضون عيونهم فى هذا الباب . وقد ثبت بنظرية النشوء الأحيائى (BIOGENESIS) بأن الكائنات الحية لا تنشأ الا من كائنات حية أخرى . ولكن بعض الناس يظنون أن العلم الحديث سوف يفتح هذا الباب المُغلَق ويكشف جميع الأسرار التى هى اليوم مستورة عن عيوننا . يقول استيون روز (STEVEN ROSE) فى هذا الصدد :

«إن علم الكيميا الحيوية علم جديد حتى الآن ، وأكثر الأشياء لم تعرف إلا «نصف المعرفة» ومن الخطأ فقد فرض أن الحاجة ماسة

---

(١) Botany, by A.C. Dutta, P. IIX.

(٢) Man The Unknown, PP. 28-29, Bombay, 1959.

للمعرفة الكاملة إلى انتظار الجيل الثانى أو الثالث» .[1]

والموسوعة البريطانية تعترف بأن تحديد الحياة الأساسى العام بين علماء العلم أمر صعب ومسألة مُعضلة متعذّرة ، على رغم المعلومات الكثيرة الحاصلة فى شتى العلوم الاحيائية مثل علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الكيمياء الحيوية ، وعلم التبوّء (علم أثر البيئة فى الحيوان والنبات) ، وعلم ايثولوغيا (علم الأخلاق والأجناس وتكوينها) ، وعلم الأجنة وغيرها . فإنها تقول :

There is no generally accepted definition of life.

أى ليس هناك تعريف عام مسلّم للحياة (بين العلماء) .[2]

والعلماء الماديون يتحيرون فى تعريف الحياة وتحديده الشافى المتعين . بل يتأولون بتأويلات عجيبة ، لاعبين بألفاظ وكلمات بعيدة المدى ، بعد اعتراف جهلهم عن أصل الحياة وحقيقتها . كما نرى أنموذج ذلك فى قاموس شهير لعلم الأحياء :

«الحياة تأليف مظهر حيوى ، وهى حالة خاصة متحركة للمادة المنظومة ، القاعدة الغامضة الخفية التى متزينة بها المخلوقات المنظومة ، على الخصوص بقوات وضوابط ، ليست ترافق بالمادة الغير الناشئة» .[3]

. والحق كما قال اسحاق اسيمو أن العلم الجديد «SCIENCE» يتلجلج ويتردّد فى تحديد الحياة ، ويعتذر فى شرحها ، لأن أصلها

---

(١) The Chemistry of Life, by Steven Rose, P. 263, Pelican Books, 1977.

(٢) Encyclopedia Brittanica, 10/893, 1983.

(٣) Dorland's Illustrated Medical Dictionary, Twenty-fifth Edition, Printed in Japan, 1980.

مربوط بالعقيدة الدينية ، كما يقول :

This is a question that science bas always hesitated to ask, because the origin of life has been bound up with religious beliefs even more strongly than has the origin of the earth and the universe. It is still dealt with only hesitantly and apologetically. (١)

أى أن هذا سؤال يتردد العلم الجديد دائماً فى طلبه ، لأن بداية الحياة مربوطة بالعقائد الدينية ، بأشد من بداية الأرض والكائنات . فإنما يهتمّ به إلى الآن بالتردد والاعتذار فحسب .

هذه معارف لتجاهلات العلم الانسانى فى مجال الكائنات الأحيائية . وكذلك الحال . فى مجال العالم الطبيعى الذى يشتمل على المواد غير الحية . ولكن لا يسع لنا هذا الاستعراض العابر لبحث واسع . وعلى كل فإننا نقول على سبيل المثال إنَّ الانسان قد عثر على الجزء الأصغر للمادة ، وهو الذرة (ATOM) ، ثم اكتشف أجزاء دقيقة لتلك الذرة . وهى الالكترون والبروتون والنيوترون . ثم كشف أشعة تخرج من بعض هذه الذرات ، وهى أشعة ألفا (ALFA RAYS) وأشعة بيتا (BETA RAYS) وأشعة غاما (GAMA RAYS) .

لقد عرف هذه الأشياء بعد مجهودات شاقة ودراسات فاحصة . ثم اطلع على أن هناك يوجد الكهرباء السلبى فى الالكترون ، والكهرباء الايجابى فى البروتون . ولكنه لم يكشف

---

(١) Asimov's Guide to Science, Vol.2, P. 173.

الغطاء عنهما ليعرف ما هما فى الحقيقة ؟ كما أنه لما تعقل بأن القوة الكهربائية بنفسها ما هى وما هى عمليتها الأصيلة ؟ ثم ما هى التفاعلات الذاتية للقوتين السلبية (NEGATIVE) والإيجابية (POSITIVE) ؟ والجدير بالذكر أن تسميتها بالإيجابية والسلبية إنما هى تحديد لعملية ظاهرية من التدافع والتجاذب . فأما التعريف المنطق الصحيح لهما فهو لا يمكن . لأن حقيقة هذه الأجزاء الدقيقة مازالت مستورة .

هذه اشراقة للدنيا الذرية المشحونة بالكهرباء التى تكوّنت منها سائر العناصر الكونية المادية وإذا تفحّصنا عن هذه العناصر والذرات وتفاعلاتها الكيميائية فانّنا نزداد فى حيرة على حيرة . والحقيقة أن عوالم العناصر لا تشبه فى تفصيلاتها الّا بعالم طلسم مذهل ، بل انها فوق ذلك .

والخلاصة أن الاكتشافات الجديدة العلمية عن جميع المواد الكيميائية وصفاتها وخواصها وتفاعلاتها ، لم تتخطّ حدود «الأسماء» التى علّمها آدم حتى الآن . والحق أن جميع ما اكتشف من الذرات والمواد واجزائها الداخلة هى «الأسماء» فقط من هذه الناحية . ولم يتمكّن الانسان على تفهم التعليلات الصحيحة الحقيقية لأشياء الكائنات ، سواءً فى اجزائها ونعوتها وصفاتها وآثارها وجميع ما يتعلق بالعلوم المادية . وهذا هو السرّ الأبدى والحقيقة العظيمة التى يكشفها القرآن بقوله :

﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾[1]

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

والذى نسميه فى النوادى العلمية والأدبية «بحقائق الأشياء» و «اكتشاف الأسرار المكنونة إنّما هى مصطلحات تعنى فى تبيين الجوانب الظاهرة للأشياء المادية ، والانسان يطير فرحاً بأنه عرف الحقائق وكشف الغطاء عنها . ومع ذلك ليس لاكتشافاتها الظاهرة أهمية بالغة أمام الحقائق المستورة الأصيلة . ولذلك سمّاها لقرآن بأسلوبه البليغ «بعلم قليل» . ولعل هذا لتشجيع الانسان ومُداراته ، لئلّا يسئم من اكتشافاته وجهوده ومحاولاته ؛ يقول عالم أوربى بهذا الصدد : «إن الاكتشافات العلمية الحديثة لا تغوص فى بحر «المجهول» ولكنها تهيأ تصورات مبهمة «لمعلوم» بالمشاهدين الذين ينتهى بصرهم فى الظلام إلى الحقيقة عمقاً أكثر من غيرهم . ولكن السؤال ما هو المعلوم فى العلم ؟ يكون جوابه الفلسفى «لا شىء» . فإذا قال عالم إنَّ هناك «معلوم البعض» فمراده أنه يعرف بعض مماثلات فى الأحداث ، يسدّد التخيّل فى بادىء الأمر أن هناك عوامل ، ثم هذه المماثلات الملاحظة ترشد إلى أن هذه المظاهر تابعة لقوانين» . (١)

والحق أن المصطلحات العلمية إنما هى كلمات بحتة خالية عن الصفات والمؤثرات التى تراد بها كما يقول المفكر الشهير جوتية (C.E.M. JOAD) :

«الصفات التى تتعرض لنا فى شتى اختباراتنا أيّاماً وليالى ، أيّاماً كانت فى الأسلوب الحكمى ، فهى جميعها تمتاز من ناحية بأن تلك

(١) The Encyclopaedia of Ignorance, P. 252.

الأشياء التى تشرح بهذه الصفات فى المصطلحات العلمية إنما تكون خالية منها على الاطلاق.[1]

والعالم الطبيعى آرتهر ايدنكتون ARTHUR EDDINGTON يقرر الكائنات الطبيعية بكائنات العلامات. فلا يعلم العالم الطبيعى إلّا علاماتها فقط. كما يقول :

«إذا سئل عالم طبيعى ما هو الأثير وما هو الالكترون أو ذرة كهربائية؟ فلا يشير فى جوابه إلى كُرة البلياردو (BERTRAND RUSSEL) أو إلى شىء محسوس. بل يشير إلى بعض علامات ومجموعة المساواة الرياضية التى تتكون بهذه العلامات بتمام المطابقة. أما السؤال بأن هذه العلامات لأى شىء تتمثل وما تقوم مقامه؟ فجوابه الحافل بالأسرار أن العلم الطبيعى لا يهتم بهذا الغرض. وليس هناك أية وسيلة لاختبار هذه العلامات وفحصها. كأنه إذا أردنا أن ندرك المظاهر الطبيعية فيكفينا تفهم نفس تلك المساواة التى ضبطت بالعلامات. فلا حاجة إذا إلى فحص ما هو المقصود بهذه العلامات».[2]

قد تبين فيما اسلفنا أن الانسان لا يعلم الا ظواهر الأشياء وتفاعلاتها الظاهرية فقط. وهى «الأسماء» أو «العلم القليل» فى نظر القرآن الكريم. ولا يعلم حقائق الأشياء وكنهها وبواطن أمورها. فهى داخلة فى الشؤون الغيبية أو العالم الغيبى. والسِرّ فيه لئلا يصبح

(١) A Guide to Modern Thought, by C.E.M. Joad.
(٢) Science and Unseen World, by Sir Arthur Stanley Eddington.

الانسان مستبداً ومتمرّداً ، يدّعى الألوهية أو المساواة فى نظام الكون بمعرفة جميع الحقائق وأسرار الكائنات . بل لا بد له أن يشعر ضعفه وعجزه بالشدّة فلا يخادع نفسه ولا يغتر.

وبالجملة فالانسان إنما يستفيد بظواهر الأشياء ويستخدم فوائدها ، ولكنه لا يقدر على ادراك ماهياتها الأساسية النهائية بأى طريق ووسيلة . وهذا العلم الحقيقى والمعرفة التامة إنما تليق وتجدر بخالق الكائنات ومُبدِئها وربّها والـهها فقط ، سبحانه وتعالى . ولذلك قال تبارك وتعالى :

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الّا هو﴾[1]

وهذه هى الحقيقة الأبدية والسر الالهى الذى يشهد به جميع المظاهر الكونية ، وليس للعلماء والفلاسفة الا أن يعترفوا بذلك فى هذا المجال . فإن الفيلسوف المعروف وعالم المظاهر هربرت سبنسر يقول : «إن التصورات الأساسية العلمية لا تفوز فى شرح نظام الكائنات فى مراميه أكثر من الدين . فإن علمنا الذى يتعلق بعوالم الداخل والخارج لايزال فى إطار من التغيّرات الكثيرة ، ولا سبيل بها إلى معرفة البداية والنهاية ، ولا إلى العِلّة الأولى والغاية الأخيرة . فإنما جهازنا العلمى يتكون من حيث أنه يدرك المظاهر المحدودة فقط» .[2]

ويقول المفكر جوتيه (C.E.M. JOAD) :

«إن التيار المنفجر للمعارف الحديثة ، منبعه العلوم الطبيعية ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة الجديدة . هو فدينج . ترجمتها الأردية . ٢/٥٣٣ـ ٥٣٦ .

ولكن حدثت الثورة فى تصوراتنا فى نصف القرن الماضى تجاه الدنيا الطبيعية . وواقع الأمر أنه يتعرض لنا شكل جديد لجزء المادة الأساسى وجهازه فى كل أربعة ـ خمسة أعوام» .[1]

وان فيلسوف العصر الراهن برتراندرسّل (BILLIARD-BALL) لقد اعترف هذه الحقيقة المريرة بقوله :

«إن التقدّمات العلمية فى العصر المعاصر قد انتهت بنا إلى مواجهة وضع مرير ذى شأن بأن كل خطوة تقدمية يقلّل معارفنا التى كانت فى تصورنا من قبل» .[2]

كأن التجاهلات ـ بهذه التصريحات ـ تزداد كلما تتقدم العلوم المادية ، فلا تنتهى إلى «حقيقة الأسماء أبداً ، على رغم أن الانسان يشق صدور الذرّات ، فيستخدم طاقاتها المودّعة فيها ، ويخترع منتوجات عجيبة ورهيبة . ولكنه فى واقع الأمر يجهل كل الجهل ، كما هو يضرب المثل بالفارسية : «عرفت بأنى لم أعرف شيئاً» .

فنظراً إلى جميع هذه الأهداف والمرامى يقول الله عز وجل :

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾[3]

﴿وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تُبصرون﴾[4]

---

(١) Guide to Modern Thought, Chapter One.

(٢) Will to Doubt, P. 181.

(٣) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٤) سورة الذاريات الآية ٢٠ ـ ٢١ .

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾ [1]

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾ [2] .

﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [3]

---

(1) سورة فصلت الآية ٥٢ .
(2) سورة الأنعام الآية ١٠٤ .
(3) سورة الفرقان الآية ١ .

انهزام النظرية الماكينيكية

وهذه هى المعارف الحقة غير المرفوضة ، التى تبطل الاتجاهات المادية الخاطئة وسائر محاولاتها الخادعة الماكرة تجاه الكون ونظاماته . ومع ذلك فانها تهدم أيضاً بناء الماديين والميكانيكيين الذين بنوه فى القرن التاسع عشر ، وتبطل جميع دعاويهم بأن تفسير العوالم المادية وشرح سائر أعضائها يمكن من الوجهة المادية والميكانيكية ، ويمكن تعليل جميع نظاماتها على أساس ميكانيكى خالص ، فهى كالماكينات ، حتى الجسم الانسانى ودماغه وفكره وارادته . فإذاً لا حاجة أن نقرّ قوةً فوق الفطرة وأن نؤمن بها .

يقول جيمس جينز : «قد أدى هذا الاتجاه إلى أن ادّعى بعضهم أن الغاية النهائية فى العلم الطبيعى أن يصير العلم كُلّه ميكانيكياً» . (١)

وهذه الحركة إنما نشأت من نتيجة أفكار جليليو (GALILEO) ونيوتن بتفسير قوانين الحركة وقوانين التجاذب الكونية المادية فى القرن السابع عشر . ثم فرض بعد ذلك أنه يمكن جميع التعديلات المتعلقة بمظاهر الكون والمادة بهذا النمط والمنوال كذلك . ولكن فشلت هذه النظرية الباطلة شر فشلة وانتهت إلى

---

(١) انظر الباب الثانى فى كتابه : MYSTERIOUS UNIVERSE

مصيرها المحتوم فى بداية القرن العشرين لظهور الاكتشافات الجديدة . مثل نظرية الكم أو المقدار QUANTUM THEORY [١] والنظرية النسبية THEORY OF RELATIVITY[٢] .

ومن المصادفة العجيبة فى دنيا العلم أنه فى القرن التاسع عشر ، لما قد شبّ علم الطبيعة وترعرع على أسس نيوتن ، ظهرت فى نفس ذلك الزمن اختبارات وملاحظات ، تزلزلت بها قوائم هذا العلم وانقض عهده على الدوام . يقول جيمس جينز :

«ونظرية الكم أصبحت اليوم كمبدأ وأساس من أسس الطبيعة الجديدة . وهذه هى النظرية ـ الكهربائية ـ قد قضيت على العهد الميكانيكى من العلم وأبدأت عهداً جديداً» .[٣]

ثم العلم لم يلتفت إلى خلقه قط ، بل انه قد تقوّى بالاكتشافات الحديثة يوماً فيوماً . ثم قد اكتشف بعد بأن ليس هناك فرق بين المادة (MATTER) والطاقة (ENERGY) بل كلاهما يتحوّل فى شكل غيره . أى المادة يتشكل فى زىّ الطاقة ، والطاقة فى المادة . فمن هذه الوجهة ضيّعت المادة ماديّتها بتمامها . لأنها قد فقدت تصلّبها وأضاعت ثباتها واستقرارها وسائر صفاتها التى أوجب لها الماديون فى القرن الماضى . يقول المفكر جوتيه فى هذا الصدد :

---

(١) نظرية تقول بأن عملية إصدار الطاقة من قبل الذرات أو الجزئيات لا تتم على نحو متواصل ولكن على مراحل . كل منها كناية عن ابتعاث مقدار من الطاقة يدعى الكم .

(٢) نظرية آينستاين فى الكون . وهى تقوم على المبدأ القائل بأن مقاييس المكان والزمان نسبيًا .

(٣) انظر الباب الثانى فى كتابه السابق ذكره .

«لا يوجد اليوم منهاج هذا الفكر مطلقاً . أى كون المادة متصلّبة وبديهية ككتلةٍ وكومة . بل هى كشىء هارب لا يمكن امساكه ، وهو فى غاية البساطة واللطافة من غير التناهى . إمّا هو بروز للزمان والمكان ، أو هو خليط مركب من الكهرباء السائل ، أو يعبّر بموجب من الاحتمال يتراقص فى العدم» .[1]

والعالم الطبيعى ايدنكتون (EDDINGTON) يُلقى الضوء على هذه الصفة الجديدة للمادة فيقول :

«لا يلحّ العلم الآن على أن الحقيقة عبارة عن الحساسية . بل الحق أن المادة قد انقرض مفهومها اللغوى وأصبح فى ذمة التاريخ منذ زمن . ومنزلتها فى الطبيعة قد سقطت فى الأسفل»[2]

وينتقد الدكتور الكسس كاريل على الذين هم البقية الباقية اليوم للفكر الميكانيكى نقداً شديداً حيث يقول :

«إن المحاولات فى شرح المظاهر النفسية بمصطلحات تفاعلات الخلايا أو بالحرارة الميكانيكية ، إنما هى التلاعب باللفظات بنفسها ، ومع ذلك هناك البقية الباقية من علماء وظائف الأعضاء الميكانيكيين من القرن التاسع عشر ، الذين يرتكبون الخطأ نفسه . لأنهم يحاولون أن يجعلوا للإنسان دورًا فى نظامات الطبيعة والكيمياء . واستنباط النتائج المنحرفة مثل هذا بالتجربات الصحيحة إنما هى المغالاة التخصيصية فى الفنون» .[3]

---

(١) انظر الباب الأول منكتابه فى الانكليزية « الدليل للفكر الحديث » .
(٢) انظر كتابه « العلم وعالم الغيب » بالانكليزية . الفقرة : ٥ .
(٣) الإنسان ذلك المجهول . بالانكليزية . ص ٤٣ . طبعة بومباى . ١٩٥٩م .

ويقول جيمس جينز فى ابطال قانون التعليل واتجاهاته المادية :

«كان العلم القديم قد أعلن بكمال الثقة والاعتماد بأن الفطرة إنما تنطلق على طريق واحد مخطّط من بداية الزمان إلى نهايته . أى هناك سلسلة طويلة من العلل والمعلولات وهى ممتدة من الابتداء والانتهاء (لا اختلال فيها) . فحالة الباء تنشأ بعد حالة الألف لازمة ، لأن من وجهة قانون التعليل لا بد أن يكون الأمر هكذا . ولكنه فى الاتجاه الجديد ليس ضرورياً أن تنشأ حالة الباء بعد حالة الألف يقيناً ، بل إنما يكون ذلك بالامكان» .[1]

فهكذا قد اهمل هذا القانون العلّية والسببيّة فى جميع المظاهر المادية فى العصر الحديث لأنه لا يوجد فى أصغر ذرات الكون أَى تعليل وتسبيب ، كما يقول العالم الطبيعى هاستل (HASTELL) :

«اللّبنات الأساسية (يعنى الالكترونات والبروتونات) بنفسها عارية بانقياد التعليلات ، حتى بعد الاطلاع على جميع شؤونها لا يمكن التنبّأ بأن تلك الذرة ماذا تفعل بعد ثانية أو بعد لحظة أو بعد سنة ؟ ثم كذلك لا يمكن التنبأ بأن ذرة من هذه كيف تعمل ؟» .[2]

وصدق الله العلى العظيم حيث قال : ﴿**ولا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء**﴾[3]

ثم إن هذه المعارف تُثبت حقيقةً أخرى ـ بعد الغاء جميع

---

(١) انظر الباب الثانى فى كتابه السالف ذكره .

(٢) Unsolved Problems of Science, P. 13.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

التعليلات والمسبّبات ـ بأن هناك قوة فوق الادراك ، تحرّك ماكينة الكائنات ، ويُمسك جهازها ، ويدبّر الأمور كُلّها بكمال القدرة والوعى والعلم والحكمة والغاية المنشودة ، فلا يغفل عنها لثانية واحدة ، وإلا فيختلّ العالم وما فيها فى لحظات عديدة . وهذه هى الحقيقة التى كشفها القرآن الكريم بأساليب شتى :

﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا﴾[1]

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يُجير ولا يُجَار عليه إن كنتم تعلمون﴾[2]

﴿فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[3]

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض﴾[4] .

﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾[5]

﴿الله خالق كل شيء وهو على كُلّ شيء وكيل﴾[6]

﴿قل أغير الله ابغى ربّاً وهو ربّ كل شيء﴾[7] .

---

(١) سورة فاطر الأية ٤١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٨٨ .

(٣) سورة يس الآية ٨٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٥ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٦ .

(٦) سورة الزمر الآية ٦٢ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

المشيئة والقدرة لله وحده

فإذا ألغى جميع قوانين المادة وتعليلاتها فى هذا الكون ، فلم يبق هناك إلّا مشيئة الله وقدرته تعالى سبحانه . وهذه نتيجة منطقية لهذا الاتجاه . ومن هذه الوجهة الارادة والاختيار والربوبية إنما تثبت لله الواحد القَهّار . فليس فى الكون وجود أن ينحاز ويتخلّص من هذه الارادة والربوبية ـ من الناحية الطبيعية ـ مَهمَا كَبُر أو صَغُر ومَهْمَا جَلاَ أو خَفِى ، إلاّ فى الأمور الشرعية والأخلاقية . وليست هذه من «فلتات الطبيعة» كما يسميها الماديّونَ. بل هى من ارادة الخالق وقدرته ومشيئته . وهو الذى يَحكم ما يشاء ويفعل ما يريد . وليس لكائن وجود مادّىّ بُدّ ، إلّا الامتثال والانقياد .

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[1] .

﴿الم تعلم ان الله على كل شىء قدير[2]﴾ .

﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾[3]

﴿ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها﴾[4]

﴿إنما امره إذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[5]

﴿هو الذى يُصوّركم فى الأرحام كيف يشاء﴾[6]

---

(١) سورة القصص الآية ٦٨ . (٢) سورة البقرة ١٠٦ .
(٣) سورة السجدة الآية ٥ . (٤) سورة هود الآية ٥٦ .
(٥) سورة يس الآية ٨٢ . (٦) سورة آل عمران الآية ٦ .

هذه هى الربوبية الشاملة لله تعالى ، التى قد سادت جميع العوالم وأحاطت بالكائنات الحية والجامدة كلها . فهو الربّ الوحيد الذى يحرك وحده ماكينة هذا الكون كيف يشاء ويفعل ما يريد . وهو الذى بيده ملكوت كل شيء من الأنظمة الطبيعة والكيميائية والبيولوجية والجيولوجية ونحوها . وهو الواحد القهار الذى يملك جميع أزمة الكينونات وجهات متعددة .

﴿الم تر انّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلـٰله ويُنزّل من السماء من جبالٍ فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾(1)

﴿أو لم يروا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾(2)

﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من انفسكم أزواجاً ومن الانعام ازواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم﴾(3) .

﴿والله خالق كل دابّةٍ من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير(4)**﴾**

﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يُزوّجهم ذُكراناً واناثاً ويجعل من

(1) سورة النور الآية ٤٣ . (2) سورة الروم الآية ٣٧ .
(3) سورة الشورى الآية ١١- ١٢ . (4) سورة النور الآية ٤٥.

يشاء عقيمًا إنه عليم قدير﴾[1]

فالمشيئة والاختيار فى عالم الخلق والتكوين والتدبير لله وحده سبحانه وتعالى . وهو العليم الخبير بالغيب والشهادة ، وهو الملك القدوس المهيمن العزيز الجبّار من جميع هذه الوجهات . وليس لكينونة من الموجودات حق فى هذه المشيئة والاختيار فى تدبير الكون ونظام الطبيعية ، حتى لا تملك نفس فى أمر ما يرجع إلى نفسها بنفسه . أى من الشؤون الطبيعية والجسمية والمادية ــ ولذلك قد نفى الله تعالى هذه المشيئة لغيره على الاطلاق :

﴿وما تشاءون الّا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾[2]

﴿وما تشاءون إلّا أن يشاء الله رب العالمين﴾[3]

نطاق العمل الانسانى :

وهناك سؤالٌ هامٌّ ينشأ فى الأذهان ، يجب توجيهه . فما هو المراد الحقيق بالمشيئة وكيف تختص بالله سبحانه وتعالى ، وواقع الأمر انما نرى الانسان كذلك يفعل ما يشاء ويَحكم ما يريد ؟ فالجواب أن الانسان وإن كان له الخيرة بأن يفعل حسب مشيئته ، الا أنه فى نطاق ضيق . فهو الخيار المحدود على أن يبدّل أنظمة الكون وحركاتها وفاعلياتها وتأثيراتها ، حتى انه لا يملك على تغيير جهازه الجسمى بنفسه وتفاعلاته المختلفة ، فضلاً عن غيره من أمور

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٩ ــ ٥٠ .
(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠ . (٣) سورة التكوير الآية ٢٩ .

التكوين . بل هو عاجز ومسكين وبائس من هذه الوجهة .

وأما ما نرى من تقدمه فى شتى مجالات العلم والتكنولوجيا إذ أنه يحرك الماكينات العظيمة ، ويُرهّب العالم بتكوين القنبلات والقاذورات ، ويمدّ سلّم التسلّق إلى الكواكب ، فيرتقى إليها ويملأ الأجواء بالأقمار الصناعية ، ويشق صدور الذرات فيخرج ما فيها من طاقات وفوائد ، ويصنع بالمواد الكيميائية مركبات جديدة مُدهِشة ، ويفكر ويدبّر فى تبديل خلايا بعض الأجسام بتبديل الجينات (وهى الخصائص الوراثية التى توجد فى الخلايا) يأخذ من بعضها ويدخل فى بعض من حيث ينشأ نوع جديد ، ليحدث ثورة فى عالم الجينيات والخلايا (وهذا العمل تحت تجربة واعتبار إلى الآن ، ولم يفز فى مراميه) . فهذه الأعمال والنشاطات كلها على نظام الفطرة ودربها بنفسها . فالانسان ليس فى الحقيقة موجد شىء ولا خالق موجود مهما جلى أو خفى . بل إنما هو كاشفه ومفتّشه ومستخبره فحسب . وهذه القوانين الكونية جارية ومنطلقة على سننها ومنوالها منذ خلق الله السماوات والأرض . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أجرى هذه القوانين والنظامات بتقديره المحكم وقضائه المبرم ومشيئته البالغة فى الكائنات المادية ، لتتم حكمته وغايته ، وليستفيد الانسان من هذه الموجودات ويستخدمها بكل يسر وسهولة . كما يقول تعالى :

﴿وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[1]

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣ .

﴿الم تروا انّ الله سخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (١)

وكما تقدم الشرح أن الانسان لا يعلم ولا يدرك كنّه الموجودات وحقائق بواطنها ، مهما ارتقى سلّم العلم فينتهى إلى أعلاه . بل إنما علمه دائر فى إطار ظواهر الكينونات وتفاعلاتها فيستخدمها بعد كشف تفاعلاتها واستخبار قوانينها الظاهرة فحسب . فليس له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد على الاطلاق .

فخلاصة البحث أن مشيئة الله تعالى تشمل جميع الشؤون الطبيعية والنظامات الكينونة الأساسية التى لا مشاركة فيها لأى كينونة ولا بشر . والاعتقاد بالعكس يكون الشرك بالله تعالى . الذى أنذر به عباده فى كتابه . وأما الانسان فله المشيئة والخيار أيضاً ولكن فى مجال الفكر والعمل ، بأن يختار ما هو الصواب فيما يعمل ، وأن يفرق بين الخير والشر . فإن الله تعالى قد بين له السبيلين كليهما ، ليختار ما هو الأصلح والأقوم . كما يقول تعالى :

﴿انا هديناه السبيل اِمّا شاكراً وامّا كَفُوراً﴾ (٢)

القضاء والقدر أمر محتوم :

ثم إن هذه المشيئة والقدرة الالهية تشير وتنتهى بنا إلى حقيقة أخرى خطيرة ، بأن هناك تخطيط وتنظيم شامل لهذا الكون وأنظمة . إذ لا يحدث فيها أية خلل ولا فطور . بل يسير جميع هذه الموجودات وما فيها من نظامات وقوانين بكل ترتيب وتنسيق . وهذا

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٠ .   (٢) سورة الإنسان الآية ٣ .

النظام البالغ والعناية الكاملة من غير فساد واختلال ، هى التى تسمّى فى الاسلام بالقضاء والقدر . أى لقد قدّر الله تعالى سائر أمور الموجودات والكينونات قبل أن يخلقها ويوجدها . فهى كلها تجرى وتتمثل على الطريق المرسوم المخطّط من بارئه عز وجلّ . فليس عقيدة القضاء والقدر إذا أمر رجعى أو أمر يخجل المسلمون أن يَتفوّهُوا به . بل هى أمر حقيقى أبدى ، ولا يرد على رغم تقدم العلم وشموله .

فإن الله تعالى قد صرّح فى كتابه المجيد وفى كلماته الأبدية الخالدة ، أنه يدبّر جميع ما بين السماء والأرض ، ويقدّر لها شؤونها وآجالها وصفاتها وحركاتها ومؤثراتها وقوانينها وما إلى ذلك من قبل أن يخلقها ، كما يقول :

﴿الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى﴾[1]

﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً﴾[2]

﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل﴾[3]

﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[4]

﴿ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً﴾[5]

﴿وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله اِلّا بقدر معلوم﴾[6]

---

(١) سورة الأعلى الآية ٢ ــ ٤ .
(٢) سورة الطلاق الآية ٣ .
(٣) سورة يونس الآية ٥ .
(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .
(٥) سورة الفرقان الآية ٢ .
(٦) سورة الحجر الآية ٢١ .

﴿انا كل شيء خلقناه بقدر . وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر﴾[1]

فإن لم يكن هناك تقدير وتدبير من الله عز وجل ، فلا يمكن إذاً أن يجرى هذا النظام المدهش ـ من السماء إلى الأرض وما فيهما من عجائب الخلق والتدبير ـ بنسق وترتيب بغير خلل وفساد . فنفس هذا النظام المدرب المنسجم يدل ويشهد على مقدر حكيم ومدبر عظيم فليس فى هذه الكائنات شىء يكذّب هذا .

الربوبية والألوهية :

إن الله تعالى هو الذى خلق السماوات والأرض اظهاراً لقدرته ، وأنشأ الأكوان والعوالم اراءةً لجماله وجلاله ، وجعل الشمس والقمر لتنوير الأرض ونضارتها ، وخلق الجبال والأنهار لتروية الخلق وتغذية الأنام . فقدّر بين عباده الأقوات والآجال لابتلاء الانسان . وهو الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ويعلم جميع ما فيها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء والأرض . يسيّر الخلق بنظامات محكمة وقوانين مُتقنة ، وهى التى يكتشفها الانسان يوماً فيوماً ، فيدهش لما فيها من دِقّة وانسجام من الصنائع الربانية . وعلى كل ، فإن هذه النظامات الربانية ـ بشكل النظامات الطبيعية ـ هى التى تسمّى «الربوبية» فى مصطلح القرآن والاسلام . و«الرب» هو الذى يهتم بهذه الأمور كلها ، من انشاء الخلق وتربيته واشرافه واكماله . فمن هذه الوجهة فالله هو الرب تعالى ، ولا يكون

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩ ـ ٥٠ .

إلّا واحد فى هذه الكائنات كما تشهد له وحدة نظاماتها المتحيّرة .

فالاقتضاء المنطقى يطالبنا أن نتخذ هذا الرب ـ وهو الرحمن الرحيم ، الشفوق على خلقه ـ الـٰهاً نعبده ، ولا نعصيه فى أمر ما . وهذه المطالبة ليست مطالبةً رجعية ولا تذكاراً للعصور الوحشية . بل هى اقتضاء عصر العلم والعرفان . وليس للعقل السليم أن ينكرها .

﴿إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين﴾ [1]

﴿الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين . هو الحى لا الـٰه الا هو فادعوه مخلصين له الدّين الحمد لله رب العالمين﴾ [2] .

العهد الجديد للنهضة الدينية :

كنا نبحث عن الحركات العلمية المتطوّرة ، والانحرافات المادية ، وفشل النظرية الميكانيكية ، وتأثيراتها فى مجال العلم والفكر . وبالتالى فلقد تجلّت فى هذه التنقيحات القيم القرآنية ومُقوّماته وانكشفت قيمته من وجهاتٍ عديدة وجديدة . فإنَّ هذه الاتجاهات الحديثة والحقائق الثابتة قد فتحت باباً جديداً لإثبات

(١) سورة الأعراف الآية ٥٤ . (٢) سورة غافر الآية ٦٤ ـ ٦٥ .

حقائق الدين والمظاهر الروحية ، بل أحدثت ثورةً فى عالم الأفكار والنظريات ، فَتَقَلَّبت الحقائق والأحوال ، وتبدّلت المقاييس والأقدار ولقد اعترف ايدنكتون (EDDINGTON) هذه الحقيقة بقوله :

«التطور الثورى الذى حدث فى دنيا العلم والفلسفة ، أكثر من غيره ، هو أن لا يسع لنا الذم للمظاهر الروحية التى تتعلق بفطرتنا بحيث أن لا علاقة لها بالعالم الحسى» .[1]

هذا اعتراف سلبى من عالم مادّى بصوت خاشع . والحق أن الاكتشافات الحديثة قد مهّدت السبيل للمطابقة والانسجام بين الدين والعلم ، كما أنها أبادت المادية واستأصلت جذورها .

ومن المصادفة العجيبة أيضاً أنه كانت تحكم المادية الدنيا الفلسفية فى القرن الماضى ، فكذلك يحكمها «العقل» فى القرن المعاصر . وهو المذهب التصورى (IDEALISM)[2] الذى يثبت العقل والوعى ، ضد المادية العمياء الصمّاء . البكماء . وهذه النظرية ــ التصورية ــ وإن كانت تنكر المادة كشىء أساسى ، إلّا أنها تؤيّد الدين وتناصره ، وتمهّد السبيل لتفسير جديد للدين ونهضته .

فهكذا يزول الضباب وتصفو السماء رويداً رويداً ، ويتحسن الجو بأدوات ولوازم جديدة . فالتصورات والأقدار التى كانت

---

(١) انظر الفقرة ٣ . فى كتابه السالف ذكره .

(٢) نظرية تقول بأن الحقيقة المطلقة كامنة فى عالم يتعدّى عالم الظواهر . (ب) نظرية تقول بأن الطبيعة الأساسية للحقيقة كامنة فى الوعى أو العقل .

يستذنب ذكرها فى الأوساط العلمية «المتنوّرة» أو فى حلقات ثاقبة الفكر إلى أمس ، فقد أصبحت اليوم هى حديث النوادى ، حتى فى حلقة الطبيعيين بنفسها . ومن المعلوم أنها هى قلعة محكمة للعلم وطليعته . فاذا فتحت هذه القلعة فماذا بقى هناك بعد ذلك ؟ فالعلماء الطبيعيون باتوا يقرون تلك المظاهر التى كانت موضوع النزاع حتى عالم آخر فوق هذه الدنيا الطبيعية ، لحل قضاياهم المعقّدة المعضلة التى تتعرض لهم أياماً وليالى . كما صرح بذلك المفكر جوتية بقوله :

« فتأثير ذلك الشأن الجديد على الفور ، أنّ العلماء الطبيعيين يشعرون الآن بحاجة إلى أن يتجاوزوا حدود الطبيعة لحل القضايا التى يواجهونها فى دنيا الطبيعة . وأنا قد أشرت ـ سابقًا ـ إلى أنهم احتاجوا الآن إلى الفلسفة ، فكثير من العلماء الطبيعيين قد أخذوا التفلسف . وأنتهوا إلى أن هناك عالمًا آخر ، وراء هذا العالم الذى يبحثه العلم الطبيعى . وذلك العالم هو وحدة عقلية أو روحية . ويقال إنَّ المادة صورة ظاهرة لتلك الوحدة . كأن هذه خطوة إلى الاعلان بأن العقل هو الحقيق ، والمادة مخلوقة له . وعلماء الطبيعة المعاصرون يُعلنون هذا بنفس رحابة الصدر وبنفس المنوال الادّعاعى الحكمى الذى ارتكبه الماديون السالفون فى القرن الماضى ، بحيث أعلنوا بأن المادة هى الحقيقة ، وأن العقل غير هام ، وهو الصادر من المادة» .[1]

وعلى كل ، فإن كثيرًا من الفلاسفة الجدد مثل هائزن برج

---

(١) « دليل الفكر الجديد » . الباب الأول .

(HEISENBERG) ، وجيمس جينز (JAMES JEANS) ، وايدنكتون (EDDINGTON) ، وفايت هيد (WHITEHEAD) وغيرهم متفقون على أنه يوجد العقل فى الكائنات بالنسبة إلى المادة ، وأن هناك «عقل» أو «ذهن آفاق» (UNIVERSAL MIND) ، وإن لم يقروا بوجود خالق ورب بنفسه ، اللّهم الا بعضهم .

هذا هو التطور العظيم والانقلاب الرئيسى المرموق فى دنيا الفكر والفلسفة والحكمة الطبيعية . فلقد انقرض الآن العهد المادى المتحكم المتطرف المسيطر على الأفكار والأذهان . كما أنه من الوجهة الأخرى قد ضاق نطاق العلم ، وتحددت جولته وصولته محصورة الأطراف والمرامى لا يتجاوز ولا يتخطى هذه الحدود . كما صرح بذلك عالم طبيعى :

«والغرض أن غاية العلم إنما هى الدلالة على أن الأشياء كيف تعمل . لا ما هى فى الحقيقة بنفسها . وبالتالى فماذا يُفتى ذلك البائس فى الدين» .[1]

وصدق الله عز وجل حيث يقول :

﴿ويريكم آياته فاىّ آيات الله تُنكرون﴾[2]

﴿خلق الانسان من عجل ساُوريكم آياتى فلا تستعجلون﴾[3]

﴿وقل الحمد لله سيُريكم آياته فتعرفونها﴾[4]

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق﴾[5]

---

(١) Unsolved Problems of Science, P. 30.

(٢) سورة غافر الآية ٨١ . (٣) سورة الأنبياء الآية ٣٧ .

(٤) سورة النمل الآية ٩٣ . (٥) سورة فصلت الآية ٥٢ .

المنهاج القرآنى فى طريق الاستدلال

وفى هذا المقام تمس بنا الحاجة إلى بعض التفصيل فى منهاج القرآن الاستدلالى الذى يتعلق «بآيات الله» و «علم الأسماء» ليتم هذا البحث من كل وجهة . فبناء على هذا نقول إنَّ كلمة «الآيات» فى الآيات الكريمة المذكورة أعلاه ، هى جمع «آية» وهى «العلامة الظاهرة لكل شيء» . قال الفراء الآية : من الآيات والعبر ، كما قال تعالى : ﴿**لقد كان فى يوسف واخوته آيات**﴾ ، أى أمورٌ وعبر مختلفة .[1]

وقال الراغب : وهى من الآيات المعقولة التى تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس فى العلم . وقيل الآيات اشارة إلى الأدلة .[2]

وقال الأستاذ حميد الدين الفراهى : الآية ما تستدل به على أمر وليست هى تمام الدليل ، بل تنبّهك على الدليل . والفرق بين الآية والدليل المنطقى من وجوه :

١ ـ ان الآية ما عليه بناء الدليل المنطقى ، مثل أن يقال : العالم متغير ، وكل متغير حادث . فتغير العالم فى هذا المثال هو الآية على

---

(١) لسان العرب لابن منظور . ٦٢/١٤ . طبعة بيروت . دار صادر .
(٢) المفردات فى غريب القرآن . ص ٣٣ . طبعة بيروت .

حدوثه .

٢ ـ ان الآية موجودة فى فطرة الفكرة ، والدليل المنطقى أمر مفروض .[١]

فالآيات إذاً التصورات المجردة من غير جمع وترتيب . والذهن هو الذى يجمعها ويرتبها ويجعلها صالحة للقضايا الاستدلالية . وهذا هو المنهاج الفطرى والطريقة الاستدلالية الاستقرائية التى تباين من منهاج الفكر اليونانى أصلاً . وهو الذى أعرض عن هذا المنهاج ـ الاستقرائى ـ اعراضاً كاملاً ، وتغلغل فى الطريقة الاستخراجية الفجّة التى ليس فيها ربح كثير . والامام ابن تيمية رحمه الله تعالى انتقد المنهاج اليونانى نقداً شديداً ، وصرّح بأن هناك فرقًا عظيمًا بين هذين المنهاجين بين اثبات الرب بالآيات وبين اثباته بالقياس البرهانى ، كما يقول :

«وأما استدلال الله تعالى بالآيات فكثير فى القرآن . والفرق بين الآيات وبين القياس أن الآية هى العلامة ، وهى الدليل الذى يستلزم عين المدلول . ولا يكون مدلوله أمراً كلياً مشتركاً بين المطلوب وغيره . بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول . كما أن الشمس آية النهار . قال تعالى : ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾[٢] . فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار . وكذلك آيات الرب تعالى ، نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى ، لا يوجب علماً كليّاً مشتركاً

---

(١) ملخص من « مفردات القرآن » للفراهى . ص ١٤ . طبعة الهند .

(٢) سورة الإسراء الآية ١٢ .

بينه وبين غيره.[1]

وحقيقة الأمر أن الموجودات الخارجية هي الآيات لوجود الله تعالى. ولذلك علمها تعالى الانسان ليكون على خبرة ومعرفة منها. وهذا هو السر فى نزول أول القرآن مما يتعلق بهذه الحقيقة، كما قال تعالى:

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾[2].

يفسر الامام ابن تيمية تفسيراً بديعاً هذه الآيات التى ينحل بها كثير من العقد الذهنية والفلسفية، التى كانت تشوش الفكر والذهن منذ زمن بعيد، وتتجلّى لنا فلسفة جديدة، وهى فلسفة القرآن الكريم، الذى يرشدنا فى مجال الفكر والفلسفة أيضاً ارشاداً تاماً، ولكن ليس فى أسلوب فلسفى. بل تتجلّى هذه المعارف بطريق التدبّر فى آيات كلام الله الخالد. فيقول:

«وذكر التعليم بالقلم، لأنه يقتضى تعليم الخط. والخط يطابق اللفظ وهو البيان والكلام. ثم اللفظ يدل على المعانى المعقولة التى فى القلب فيدخل فيه كل علم فى القلوب. وكل شىء له حقيقة فى نفسه ثابتة فى الخارج عن الذهن. ثم يتصوره الذهن والقلب. ثم يعبر عنه اللسان. ثم يخطه القلم. فله (هكذا أربع مراتب): وجود عينى، وذهنى، ولفظى، ورسمى. (أى) وجود الأعيان والأذهان واللسان والبنان. فالأول هو المخلوق والثلاثة (الباقية) معلّمة.

---

(١) كتاب الرد على المنطقين. ص ١٥١. طبعة لاهور.

(٢) سورة العلق الآية ١ ـ ٤.

فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع» .[1]

فالأسماء التي علمها الله تعالى آدم عليه السلام ، كانت هذه هي المراتب الأربع للأشياء الكونية المادية ، ليكون على بصيرة تامة ، ولا يتوحش من هذه المظاهر بعد ظهوره في الدنيا وساحتي الحياة والخلافة . بل ليتعرفها مع صفاتها وآثارها ونظاماتها الظاهرية ، ليتمكن على استخدامها وتسخيرها ، فيتمتع بفوائدها ويجتنب مضارها . وكانت هذه الأهداف والمرامي لا تتم الا بتعليم هذه المراتب الأساسية الحقيقية . ولذلك علمها خالقها وبارئها في بداية الأمر .

فالأسماء من هذه الناحية هي الآيات الدالة على وجود الخالق والرب . أو بتعبير آخر : فالآيات إنما هي الأسماء الحاملة لمفهومات ظاهرة ـ حسب تفهّات البشر على اختلاف أحوالهم ومعارفهم ـ [2] تصلح لتكوين الأدلة العلمية الدالة على وجود الخالق المبدع البارىء ، بدلالات واضحة في كل عصر ومصر . فالأسماء والآيات كلتاهما مستلزمة للأخرى ولا تنفك عنها . وهذه حكمة ربانية عجيبة . وهذا هو الهدف الأساسي الذي ذكره البارىء سبحانه وتعالى في هذه الآيات ، لتكون أسساً لتدوين الأدلة العلمية لهداية البشر كافة .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . ٢٦٤/١٦ ـ ٢٦٥ .

(٢) فإن هذه الأسماء لا تقبل أية تغير ولا تطور في مفهوما الأصلية . إلاّ ما يظن الناس من مفهومات من سوء فهمهم وتصورهم لعدم تمكنهم على جميع ما يقتضي الشؤون والاعتبارات للتفهات الصحيحة والاختبارات الكاملة .

٢٩ ـ الحاجة إلى تدوين الأدلة العلمية على منهاج القرآن الكريم :

فمن هذه الوجهة الحاجة ماسّة إلى اتمام هذا العمل وتدوين الأدلة العلمية الكونية ـ وهى الأدلة الآفاقية والأنفسية حسب مصطلح القرآن الكريم ـ على منهاج القرآن الكريم وأهدافه ومراميه . وهذا دَينٌ على عواتق علماء الاسلام ، ما لم يؤدّوا واجباتهم الدينية لارشاد البشر التائه ، وتوجيهه حسب متطلبات العصر .

ومن حسن الحظ أن جميع العلوم الكونية الحديثة إنما تنطلق منطلق المفهوم القرآنى أو على منهاجه المرسوم المخطّط . بل هو الذى مهّد هذا الطريق لأول مرة فى هذه الدنيا ـ كما يظهر ذلك بالدراسة التاريخية ـ لاثبات معتقداته ودعاويه الأبدية والأهداف الأساسية من نفس الوجهة العلمية . لتكون حجة بالغة ودروساً ناصعة على المنكرين بوجود الله تعالى وربوبيته ووحدانيته وقدرته وعلمه البالغ الواسع المحيط بجميع الأشياء الكونية التى لا يحيد منه شىء ، وبامكان المعاد ووقوعه ، وغير ذلك من المطالب العالية . وقد قال الله عز وجلّ :

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[1]

وهذه الدعوة بالأساليب الثلاثة المتنوعة المذكورة فى هذه الآية الكريمة ، تجمع وتضم إليها جميع مقتضيات العصر أيضاً ، لأن

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

الاسلام دين حق خالد ، ليس موقتاً . فنظراً إلى هذا المرمى «الجدال الأحسن» لا يتم اليوم ولا يكون حجة على العصر المعاصر الا بالاستعراض الشامل للعلوم الحديثة الكونية المعاصرة ، على منهاج القرآن ونمطه ومنواله ، ثم تدوين الأدلة العلمية «بالآيات والأسماء» التى تنطق العلوم الحديثة وتتحدث عنها كثيراً . كأنه يخيّل إلينا أنها إنما تتمثل «التعليم والتعلّم» بين الله وبين آدم ، بأزياء جميلة وحلل فاخرة نفيسة . وهذه التمثيلات تكون بارزة ومتنورة أكثر من قبل ، كلما تقدمت العلوم وتتجلى الأسرار .

ولعلها الغاية الكبرى والرئيسية التى كانت مقصودة من تعليم هذه الأسماء ومتعلقاتها فى بداية الأمر ، لئلا يغضّ المسلمون خاصة ـ وهم الورثة لعلوم الأنبياء ومعارفهم ـ عن تعليم هذه الأسماء وتعلّم متعلقاتها . فإن هذا العلم ـ علم الأسماء ـ بهذا الاعتبار معقود به الخير من وجهتى الدينية والدنيوية كما بينا . فليس من المعقول أن يرفض المسلمون هذه الأسماء وعلومها ومعارفها التى علّمها الله تعالى بنفسه لصالح دينهم ودنياهم ، وأن يتوحشوا منها وحشة تؤدّيهم إلى خسارة الدين والدنيا .

والغرض أن هداية البشر من ناحية الفكر والعقيدة هو الهدف الأول لتنزيل القرآن ورسالات الدين . فالقرآن ـ وهو رسالة الله الأخيرة النهائية ـ يعنى ويهتمّ بهذا الهدف بأكمل طريق بأساليب متنوعة . ولكن لا يسع لنا هذا المقام تفصيلها والبحث الواسع عنها . فلنذكر هنا بالاشارة أموراً ما نحن الآن فى صددها لاتمام البحث بالايجاز .

لقد ذكر الله تعالى أن فى كل كينونة من الموجودات وفى كل

شيء من الكائنات علامات ظاهرة وسمات بارزة ، يتعقّلها المتوسّمون وأولوا الألباب ، إذا تفكروا وتأملوا فى نظامات هذه الأشياء والموجودات وفى كيانها وطبائعها وأجهزتها المتحيرة المدهشة ، التى تدل على وجود خالق ورب ، وتنطق عن حكمة وعقل ومعرفة وكمال الخبرة والغاية . كما يقول تعالى :

﴿وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (١)

﴿إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾

﴿وفى خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون﴾ (٢)

﴿وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ (٣)

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثُمّ إذا انتم بشر تنتشرون﴾

﴿ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها﴾

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم﴾

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾

﴿ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾

﴿ومن آياته أن تقوم السّماء والأرضُ بامره﴾ (٤)

﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر﴾ (٥)

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة﴾ (٦)

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٠ ـ ٢١ . (٢) سورة الجاثية الآية ٣ ـ ٤ .
(٣) سورة يونس الآية ٦ . (٤) سورة الروم الآيات ٢٠ ـ ٢٥ .
(٥) سورة فصلت الآية ٣٧ . (٦) سورة الشورى الآية ٢٩ .

﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون﴾[1]

﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلمون﴾[2]

﴿هو الذى يُريكم آياته ويُنزل لكم من السماء رزقاً﴾[3]

فالآيات مثلها كثيرة جداً وردت فى القرآن الكريم . وتظهر أهمية هذا الموضوع وخطورته بأن كلمتى الآية والآيات قد وردت فى القرآن الكريم ٤١٧ مرة ، فلا يجوز صرف النظر عنها .

والآيات ـ كما شرحنا سابقاً ـ هى الأسماء الحاملة لظواهر المفهومات للموجودات الكونية . فالأشياء التى خلقها الله سبحانه لا يُحصيها إلّا هو . وهذه تكون ملايين بلايين . والعلم الجديد قد اكتشف إلى الآن مليوناً وربعاً فقط ، من الحيوان والنبات المبثوثة على وجه الأرض .[4] وكذلك توجد هناك عدة مئات ألف ـ أو عدة ملايين ـ من المواد المركبات النامية (ORGANIC COMPOUNDS) والمركبات الغير نامية (INORGANIC COMPOUNDS) ، بالاضافة إلى ما كشف الكاشفون ملايين بلايين من النجوم والكواكب والمجرات .

فللبحث والفحص عن هذه الموجودات والكينونات وماهياتها وتراكيبها ، لا بدّ المعرفة والنبوغ فى العلوم الكونية الحديثة ـ وهى علم الطبيعة ، وعلم الكيميا ، وعلم الأحياء ، وعلم الجيولوجيا وعلم الأفلاك وفروعاتها الكثيرة ، التى تبحث عن هذه الأشياء الكونية . وبدون النبوغ فى هذه العلوم يستحيل لنا فهم «الأسماء» فهماً تاماً ،

---

(١) سورة يس الآية ٣٣ . (٢) سورة يس الآية ٣٧ . (٣) سورة غافر الآية ١٣ .

(٤) Asimov's Guide to Science, Vol. 2, P. 304.

وتدوين الأدلة العلمية التى تكون حجة على علماء الفطرة سواء .
فالقرآن منزّل من الله ليكون حجة على جميع طبقات البشر بالسواء كما قال تعالى :

﴿تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[1]

﴿ان هو إلّا ذكر للعالمين . ولتعلمُنّ نبأه بعد حين﴾[2]

فعلماء الاسلام مسئولون لاتمام هذا العمل الجليل عند الله وعند الناس ، لأنهم هم الذين ألقيت على عواتقهم مسئوليته مباشرة . كما أن أصحاب الحكومة والمناصب العليا هم أيضاً شركاء فى أداء هذه المسئولية سواء بالسواء . وبما أن الفرد الوحيد لا يستطيع أن يتمهّر فى سائر العلوم لاتساع مجالاتها ، فلا بد أن تكون هناك جماعة تتكون من أفراد أخصائيين فى علوم شتى وفنون مختلفة من الدين والعلم جميعاً ، ليكون هذا العمل على مستوى عالٍ ونطاق واسع . فيجب على أمراء المسلمين أن يتكفّلوا هذه الجماعة الخاصة لاتمام هذه الحاجة الملحة ، التى تكاد تجعل كلمة الله هى العليا ، فتكون حجة على النوع البشرى وسائر طبقات الناس حسب متطلبات العصر المعاصر . وهذه هى حاجة الساعة .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿خلق الله السموات والأرض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين﴾[3]

---

(١) سورة الفرقان الآية ١ .
(٢) سورة ص الآية ٨٧ـ ٨٨ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٤ .

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً . سبحانك فقنا عذاب النار﴾[١]

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ ـ ١٩١ .

خلاصة البحث

بحثنا فيما سبق عن مفهومات الأسماء ومتعلقاتها ـ وهى القيم والأقدار القرآنية ـ من ناحيات شتى ، فى ضوء العلوم الحديثة . واتضح لنا من خلال هذه المباحث أهمية العلوم الحديثة وقيمتها من الوجهة الدينية والدنيوية . فإن هذه العلوم لها أهمية بالغة فى الساحة العسكرية والسياسية والحضارية والاجتماعية ـ كما لاحظنا ذلك من قبل وكما سنلاحظه فى الصفحات الآتية ـ وكذلك لها أهمية فى حقل الفكر والفلسفة . فمن جميع هذه الجهات لا بد لنا النبوغ والتقدم فيها . وبهذا العمل الفكرى والانطلاق الحضارى يفتح باب النهضة الاسلامية وتمهّد النشأة الجديدة للمسلمين فى مجال الخلافة فى الأرض إن شاء الله عز وجل .

العبرة فى قصة آدم :

قال تعالى : ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ (١)

نظراً إلى الملاحظات السابقة ، هناك سؤال هام قد ينشأ فى بعض الأذهان ـ كما سألنى بعض أصدقائى ، لما عرضت عليهم هذا البحث فى بعض النوادى العلمية ـ أنه هل كان آدم عالماً بالفطرة ،

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

حتى تمكن من معرفة جميع العلوم الكونية ونظاماتها وخصائصها ؟ فقلت لهم بأن هذا سؤال واهٍ أمام المنصوصات القرآنية . فإنه يقول بكل وضوح إن الله تعالى علّم آدم جميع الأسماء ، وقد صرح المفسرون بأن المراد بذلك سائر موجودات الكون وصفاتها وخواصها ، كما سبق تفصيلها . فكيف يسع لنا الانكار أو الشبهة فى هذه الحقيقة الواقعية ، وان لم نفهم كيفية هذا التعليم . فقد قال الله عز وجل :

﴿إنَّ هذا لهو القصص الحق﴾ (١)

﴿افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ (٢)

﴿قل انى على بينة من ربى﴾ (٣)

وعلى كل ، يجب علينا أن نؤمن بجميع ما يثبت من النصوص القرآنية ومعارفه الأبدية . ثم ان من التأملات والنظرات الفاحصة فى هذه القصة العجيبة يتبين لنا الحكمة الالهية بأن هناك أهمية بالغة وقيمة ذات شأن لهذا التعليم الربانى فى حياة بنى آدم بالنسبة منه . ولذلك هذه القصة مذكورة فى القرآن الكريم بأسلوب بديع رائع وبعناية خاصة تذكرة للناس وارساخاً فى الأذهان مع اخفاء بلاغ منهم ذوبال . فالنكتة المركزية فى هذه القصة الطريفة إنما هو التعليم الشامل لجميع أسماء الكون ثم تفضيل آدم على سائر الملائكة . فأظهر الله تعالى بهذا العمل فضل العلم على سائر الخلائق . كأن هذه اشارة بأن من حفظ هذه الأسماء وتمهّر فيها ، يكون له الفضل

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٢ . (٢) سورة هود الآية ١٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٧ .

ويسيطر على غيره . فكانت هذه القصة ـ من هذه الوجهة ـ تذكرة وذكرى للمسلمين بأن لا يتناسوا ولا يغفلوا عن هذه الأسماء فى شئون حياتهم الاجتماعية ، فيخسروا خسراناً مبيناً ، فليكونوا على تذكر ووعى منها دائماً . لأن هذا العلم ـ علم الأسماء ـ يفتح لهم أبواب الخلافة وأبواب السلطة والسيطرة على غيرهم ، كما فضل آدم على غيره بهذه الميزة . هذه هى العبرة والموعظة الأولى فى قصة آدم ، التى قد نسيها المسلمون فى العصر الراهن فتخلّفوا فى حقل الخلافة والسيادة .

الخلافة الأرضية والمسلمون :

ثبت بهذه التصريحات فضل «علم الأسماء» أو «علم آدم» الذى له أهمية بالغة فى مجال الخلافة الأرضية . فإن الأمم المميّزة بهذه الصفة يُرهِبون الأمم المتخلّفة ارهاباً شديداً ويهددونهم يوماً فيوماً بأنواع من التهديدات ، كما نُشاهدها اليوم عياناً . ومن هذه الوجهة قد فاق كثير من الأمم والشعوب فى هذا المجال ، فتمهّروا فى العلم والتكنولوجيا وسيطروا على العالم ولكن المسلمين بالعكس قد باتوا مُتخلفين فى هذه الساحة . لأنهم قد نسوا «علم أبيهم» فطرحوا «المفتاح الرئيسى» الذى يفتح به جميع الأبواب فى ميدان الخلافة الأرضية . فانتهوا إلى بؤس وشقاء من الوجهة العلمية والاجتماعية والعسكرية والسياسية والدولية والدبلوماسية وانهزموا فى جميع ساحات الحياة انهزاماً مخزياً . فخلفهم غيرهم من الشعوب والأمم ، وأخذوا مكانهم يحيطونهم ويهدّدونهم بالوسائل المادية الرهيبة ،

متسلّحين «بأزياء الأسماء» . فقد تجاوز الدمار حدّه ، وبلغ الفساد نهايته ، فليكونوا الآن على صحوة ، وليعودوا إلى ما هو الصواب ، لاسترداد مجدهم واسترجاع مفقودهم . فلا تحصل لهم الخلافة بالأمنيات والأحلام بالنهار . فإن الصورة القائمة الموجودة أمامنا إنما هى عقوبة لخطيئتنا وزلتنا وفشلنا فى هذه الساحة . قال الله تعالى :

﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1] .

وقال تعالى : **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم﴾**[3] .

فإن هذه الآيات تنبه المسلمين وتوقظهم من النوم والنعاس الطويل وتهزّهم هزاً شديداً وتدفعهم إلى العمل والنشاط . وعلى كل ، فإذا نهض المسلمون بعزيمة جديدة وهمة ناشطة ، وتهيّأوا للعمل المتواصل والجهد المتعب الطويل من غير سئآمة ، فقد نجحوا فى هذا المجال نهائياً ، وظفروا به ظفراً ينتهى إلى نهضتهم «خلفاء الأرض» بكل معناه . فهذه هى الخلافة المطلوبة من الله تعالى فى هذا الصدد .

قال تعالى : **﴿ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾**[4]

وقال تعالى : **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾**[5]

---

(١) سورة الرعد الآية ١١ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠ .
(٣) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٤) سورة يونس الآية ١٤ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً انعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[1]

اعجاز القرآن وهدايته الشاملة :

هذا هو نداء الساعة والبلاغ الربانى الذى يتجلّى لنا من خلال هذه القصة المنسية بكل وضوح وتبيان ، وليس فيه طيٌّ ولا تعقّد . بل إنما هى هداية وارشاد من الله تعالى بمقتضى أحوالنا وشئوننا الاجتماعية . فإن كتاب الله الكريم ليس هو يهدى فى الشئون الدينية والشرعية فحسب ، بل هو يهدى فى الشئون العلمية والفكرية والاجتماعية كذلك . فمن سوء حظنا وشفاءنا نحن أننا قد رفضنا أن تقتبس من أنوار هذا الكتاب الهادى الخالد المعجز ونستنبط من معارفه ونخوض فى أغواره ، فى قضايانا الحديثة ، التى عرضها علينا العلم والفلسفة والحضارة للتوجيه والارشاد . فإن رسبنا فى هذا التوجيه وعجزنا عن حل القضايا المعروضة المطّردة ، التى تحيط بنا فى جميع شئون حياتنا الفردية والاجتماعية ، التى لا مفر منها ولا مهرب لها ، تخيّبنا وتفشلنا فى منصبنا الدينى ودعوانا فى سيادتنا العالمية . فلا يثبت بهذا الاتجاه السلبى صلاحية المسلمين ودعواهم بأنهم هم الذين وحدهم على طريق سديد ، ويملكون كتاباً خالداً من الله تعالى يهديهم إلى صراط مستقيم . فلابد لاثبات هذه الدعاوى وتحقيقها أن نغيّر أوضاعنا النفسية والمقاييس الفكرية أولاً ، ثم نتهيّأ للعمل والنشاط بطريق مرسوم مخطّط ، فنسعى

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٢ .

لتبديل أوضاعنا الاجتماعية للصحوة الدينية والنهضة الاسلامية .

وعلى كل ، فإن كتاب الله الكريم قد جاء يحمل جميع ما يحتاجه البشر فردياً واجتماعياً ، فيشرح سائر قضاياه التى يواجهها فى شئون حياته المختلفة . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾(١)

﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾(٢)

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾(٣)

﴿إن هو الّا ذكر للعالمين﴾(٤)

﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾(٥)

إنّ القرآن كتاب إلآهى خالد ، يحمل ويعالج سائر القضايا البشرية فى حقل الشرع والأخلاق ، وفى حقل الفكر والتصورات الأساسية . ويكون من جميع هذه الموجهات هداية ورحمة وتذكرة وبرهاناً . وهو ينصب لهم معالم شتى تبييناً لمراميه وأهدافه الأساسية ، ليهتدوا إليها ويستمسكوا عروته الوثق ، فتكون كلمة الله هى العليا نهائياً . ولكن اسلوبه ومنهاجه فى بيان هذه الأغراض وشرح غاياتها يختلفان عن جميع أساليب كلام الناس كل الاختلاف . فليس هناك مشاكلة ومماثلة بينهما من أى وجه ، كما جاء فى الحديث النبوى شرحاً لهذا المبدأ والاساس : «ولا تلتبس به

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(٣) سورة النحل الآية ٨٩ .
(٤) سورة التكوير الآية ٢٧ .
(٥) سورة الفرقان الآية ١ .

الألسنة» . وكما جاء بهذا الصدد :

« فيه نبأ ما قبلكم . وخبر ما بعدكم . وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة . ولا يشبع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقض عجائبه» .[1]

وهذه صفات عديدة متميّزة لهذا الكلام المعجز المدهش الذى يبدى عجائبه فى كل عصر وزمن إلى يوم القيامة . فلا يكون شرح له شرحاً كاملاً من هذه الوجهة أبداً . فلقد لاحظنا لمعة وجلوة لهذا الأسلوب البديع المعجز الالهى فى الصفحات السالفة ، حيث القينا الضوء على آية قصيرة (وعلم آدم الأسماء كلها) من ناحيات عديدة فقط ، والا هناك أسرار وحقائق ورموز لا تحصر فانه بحر زاخر يعجز الانسان من اجتيازه واسبار غوره . وعلى كل فقد تجلّت لنا فى ثنايا هذا الاستعراض العابر نصوص وبصائر واشراقات ما تنوّر أفكارنا ويصقل أذهاننا ويسدّد تصوراتنا واتجاهاتنا تجاه الدين والعلم والفكر والقضايا الحديثة المهمة التى نواجهها اليوم ، يتلألأ من خلالها روائع ومعارف ربانية ، وهى تلمح كالكواكب فى السماء فى الليلة المظلمة . فهذا هو الاعجاز الأصيل الحقيقى لهذا الكتاب الفريد الفذّ . وهذه هى الهداية الشاملة والارشادات الالهية لعالم البشر الحائر .

---

(١) الجامع للترمذى . باب ما جاء فى فضل القرآن .

فمن هذه الناحية ليس القرآن الكريم مجرد كتاب الشريعة والأخلاق . بل انه فى واقع الأمر يجمع الدين والدنيا . فكما هو يشمل القضايا الدينية والشرعية ، فإنه كذلك يشمل التصورات العلمية والفكرية والفلسفية والاجتماعية كلها . فهو إذاً كتاب التصورات الصحيحة تجاه كل شيء من العالم ، يدفع الاتجاهات المنحرفة ، ويمنح فكرة واضحة وتصوراً ناصعاً ، لكل اتجاه نظرى ومنهج فلسفى ، يسدّد ما فيه من عوج وخطأ . هذه هى هدايته الشاملة فى جميع نواحى الحياة الانسانية وهذه الهداية الربانية لا تتجلّى الا بالنظر العميق والدراسة البالغة الفاحصة عن رموزه واشاراته المتناثرة . فهو من هذه الناحية موسوعة فكرية وجيزة متفردة غير متعقدة بأسلوب ناصع سهل ، ومنهج باهر جذّاب ، شاهده البشر . فلا يوجد له مثيل فى كلام البشر ، ولا يشابهه كلام الناس بهذه الميزات .

وبالجملة فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الفريد الذى يستطيع أن يحل جميع القضايا المتعلقة بهذه التصورات والنظريات ، ولا يرضى أن يتيه البشر فى طيات الأفكار المنحرفة والفلسفات الخاطئة والنظامات الخاسرة التى تحيط العالم البشرى اليوم وتكاد أن تخطفه من هنا وهناك .

الحاجة إلى تكوين مجلس أعلى للمسلمين :

إنَّ الحاجة اليوم داعية إلى التفقه الدقيق الصحيح السديد فى القرآن الكريم ، وإلى شرحه شرحاً وافياً يطابق المقتضيات العصرية ،

ومواجهة للتحدّيات المعاصرة ، المعادية للديانات والأخلاق . وهذه هى مسئولية علماء الاسلام .

ومن هذه الوجهة لابد أن تكون هناك جماعة خاصة من المسلمين ، متكونة من العلماء الأخصائيين فى العلوم الدينية والدنيوية ، لاستخراج كنوز الاسلام الثمينة واستنباط روائع كتاب الله وأسراره ودقائقه ومقوماته ، بمعرفة صحيحة ووجهات سديدة ، ليتم هذا العمل الجليل من تفاهمات بينهم وتشاورات من ناحيات كثيرة . وتكون هذه الجماعة قبلة أنظار لحل سائر قضايا المسلمين وخاصة القضايا الفكرية التى تعارض الدين فلا تحدث ثورة شاملة فى مجال الفكر والفلسفة الا بهذه الخطوة الأساسية المباركة . وبهذه الخطوة الانقلابية نتقدم إلى ما هو المقصود من هذه الآيات الكريمة :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾(١)

هذا بصائر للناس وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

فهرس الكتاب

الصفحة

صدر من هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
١ - تأملات فى سورة الفاتحة	[الدكتور حسن باجودة]
٢ - الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣ - الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين	[الأستاذ نذير حمدان]
٤ - الإسلام الفاتح	[الدكتور حسين مؤنس]
٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكرى	[الدكتور حسان محمد حسان]
٦ - السيرة النبوية فى القرآن الكريم	[الدكتور عبد الصبور مرزوق]
٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية	[الدكتور على محمد جريشة]
٨ - صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الإسلامية	[الدكتور أحمد السيد دراج]
٩ - النوعية الشاملة فى الحج	[الأستاذ عبد الله بوقس]
١٠ - الفقه الإسلامى آفاقه وتطوره	[الدكتور عباس حسن محمد]
١١ - لمحات نفسية فى القرآن الكريم	[د. عبدالحميد محمد الهاشمى]
١٢ - السنة فى مواجهة الأباطيل	[الأستاذ محمد طاهر حكيم]
١٣ - مولود على الفطرة	[الأستاذ حسين أحمد حسون]
١٤ - دور المسجد فى الإسلام	[الأستاذ على محمد مختار]
١٥ - تاريخ القرآن الكريم	[الدكتور محمد سالم محيسن]
١٦ - البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام	[الأستاذ محمد محمود فرغلى]
١٧ - حقوق المرأة فى الإسلام	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
١٨ - القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها	[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
٢٠ - المعاملات فى الشريعة الإسلامية	[الدكتور عبد الستار السعيد]
٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها	[الدكتور على محمد العمارى]
٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	[الدكتور أبو اليزيد العجمى]

الكتاب	المؤلف
٢٣ ـ الأقليات المسلمة فى آسيا وأستراليا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	[الدكتور عدنان محمد وزان]
٢٥ ـ الإسلام والحركات الهدامة	[معالى عبد الحميد حموده]
٢٦ ـ تربية النشء فى ظل الإسلام	[الدكتور محمد محمود عمارة]
٢٧ ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى	[الدكتور محمد شوقى الفنجرى]
٢٨ ـ وحى الله	[الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
٢٩ ـ حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن	[حسن أحمد عبدالرحمن عابدين]
٣٠ ـ المنهج الإسلامى فى تعليم العلوم الطبيعية	[الأستاذ محمد عمر القصار]
٣١ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣٢ ـ الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٣٣ ـ الاعلام فى المجتمع الإسلامى	[الأستاذ حامد عبد الواحد]
٣٤ ـ الإلتزام الدينى منهج وسط	[عبدالرحمن حسن حبنكة الميدانى]
٣٥ ـ التربية النفسية فى المنهج الإسلامى	[الدكتور حسن الشرقاوى]
٣٦ ـ الإسلام والعلاقات الدولية	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٣٧ ـ العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	[اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
٣٨ ـ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها	[الدكتور محمود محمد بابللى]
٣٩ ـ النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث	[الدكتور على محمد نصر]
٤٠ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين	[الدكتور محمد رفعت العوضى]
٤١ ـ المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام	[د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر]
٤٢ ـ الأقليات المسلمة فى أفرقيا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٣ ـ الأقليات المسلمة فى أوروبا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٤ ـ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]

الكتاب	المؤلف
٤٥ ـ الطريق إلى النصر	[الأستاذ محمد عبد الله فودة]
٤٦ ـ الإسلام دعوة حق	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٤٧ ـ الإسلام والنظر في آيات الله الكونية	[الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي]
٤٨ ـ دحض مفتريات	[د. البدراوى عبدالوهاب زهران]
٤٩ ـ المجاهدون في فطاني	[الأستاذ محمد ضياء شهاب]
٥٠ ـ معجزة خلق الإنسان	[د. عبد الرحمن عثمان]
٥١ ـ مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	[الدكتور سيد عبدالحميد مرسى]
٥٢ ـ مايختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي الماركسي	[أنور الجندي]
٥٣ ـ الشورى سلوك والتزام	[د. محمد احمد البابلي]
٥٤ ـ الصبر في ضوء الكتاب والسنة	[أسماء عمر فدعق]
٥٥ ـ مدخل إلى تحصين الأمة	[د. احمد محمد الخراط]
٥٦ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته	[الأستاذ احمد محمد جمال]
٥٧ ـ كيف تكون خطيبا	[عبد الرحمن خليف]
٥٨ ـ الزواج بغير المسلمين	[الشيخ حسن خالد]
٥٩ ـ نظرات فى قصص القرآن	[محمد قطب عبدالعال]
٦٠ ـ اللسان العربى والاسلامى معاً فى مواجهة التحديات	[الدكتور السيد رزق الطويل]

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامى ـ مكة المكرمة